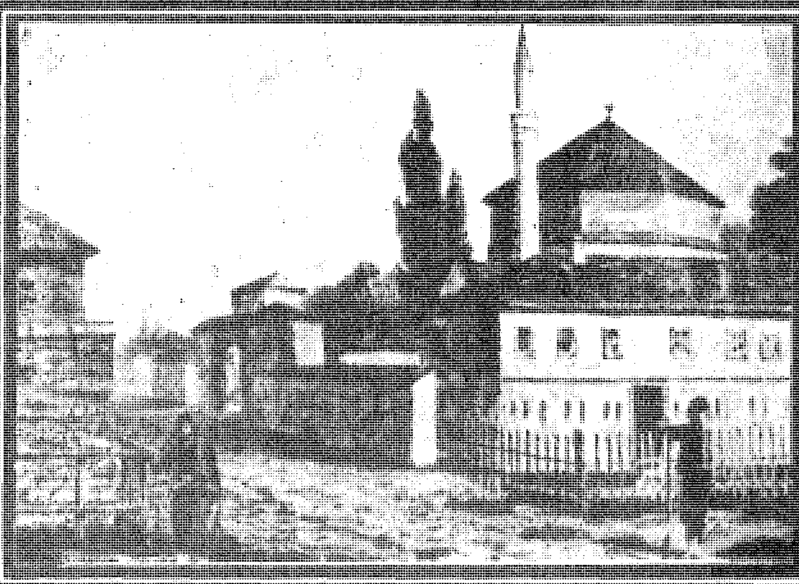
المكتبة البلقانية
١

تاريخ بلغراد الإسلامية



الدكتور محمد موفاكو

مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع
الكويت

تاريخ

بغداد الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

المكتبة البلقانية (١)

تاريخ بلغراد الإسلامية

الدكتور محمد موفاكو

مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع
الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

امتاز الموقع الذي تقوم عليه بلغراد بأهمية كبيرة على اعتباره بوابة البلقان التي تتحكم بعقدة مواصلات حيوية للغرب في اتجاه البلقان والشرق، وللشرق في اتجاه الغرب. وقد أدت أهمية هذا الموقع إلى تنازع القوى الكبرى والدول الناشئة الطموحة للسيطرة عليه، سواء في عهد الامبراطورية الرومانية، أو في زمن الامبراطورية البيزنطية. ونتيجة لهذا التنازع المتواصل، وما أدى إليه من انتقال هذا الموقع من قوة إلى أخرى، ورغبة كل قوة في تثبيت وجودها بنفي الأخرى، انعدم الاستقرار الضروري لتطور ما بُني على هذا الموقع وازدهاره كمدينة بالمعنى الشامل للكلمة. وقد برزت أهمية الموقع الذي تقوم عليه بلغراد في القرن الخامس عشر مثلاً، في ذروة الحرب بين الامبراطورية العثمانية والمجر، التي كانت قد أنعشت من جديد الروح الصليبية في أوربا وتطورت إلى حرب بين الإسلام والمسيحية، ولكن على الأرض الأوربية هذه المرَّة. فخلال هذا القرن كانت بلغراد القلعة الحدودية للمجر، قد تحوَّلت إلى «حصن المسيحية» وأصبحت رمزاً يعني الكثير لكل أوربا في صموده أو في سقوطه.

وقد اتضحت هذه الأهمية الفائقة للموقع بعد سقوطه في يد العثمانيين سنة ١٥٢١، إذ تحوَّل «حصن المسيحية» إلى «دار الجهاد» ومنه تابع العثمانيون اختراقهم لأوربا حتى وصلوا إلى أسوار ڤيينا سنة ١٥٢٩. وخلال الحكم العثماني الطويل ١٥٢١-١٨٦٧، وخاصة في الفترة الأولى

١٥٢١ - ١٦٨٩، توفر الاستقرار لهذا الموقع وتحوَّلت بلغراد من قلعة إلى واحدة من أكبر المدن في أوربا الشرقية. وفي الواقع لقد نشأت خارج القلعة مدينة جديدة ازدهرت كنموذج للمدينة الإسلامية وشكلت نموذجاً حضارياً متقدماً بالنسبة للوسط الأوربي. ومع هذا الازدهار، الذي صاحبه نمو المدن الأخرى في البلقان في ظل الحكم العثماني، امتدت حدود الشرق غرباً حتى أصبحت مدينة بلغراد «بوابة الشرق» بالنسبة للأوربيين الغربيين الذين كانوا يشعرون عند وصولهم إلى بلغراد بعبورهم إلى الشرق. وبعد هذا الازدهار، الذي أصبحت فيه بلغراد تُشَبَّه بدمشق، جاءت حرب الاسترداد لتقضي على بلغراد تدريجياً كرمز للنموذج الحضاري الشرقي الإسلامي في أوربا، وهكذا، باستثناء الجامع الوحيد الذي بقي في المدينة بعد أن كان عدد الجوامع يتجاوز المئتين، تبدو بلغراد الآن مدينة أوربيةً حديثةً لا تمُتُّ بصلة إلى تراثها الحضاري السابق.

وعلى الرغم ممّا تعني هذه التجربة الحضارية لبلغراد، كبوابة للشرق والإسلام في أوربا، نجد أن ما كُتب ويُكتب عن بلغراد وعن يوغسلافيا بشكل عام في اللغة العربية لا يتعرض إلى هذا الجانب ولو بشكل عابر. وفي الواقع إن الاهتمام العربي بيوغسلافيا، الذي تصاعد بحماس في الخمسينات واستمرّ بعد ذلك في الستينات، أدى إلى نشر مئات المقالات والدراسات وعشرات الكتب عن يوغسلافيا. وفي هذا الإطار لا نلمح شيئاً مميزاً عن بلغراد حتّى عند الكتابة عن هذه المدينة. ويبدو لنا الآن خارج مربّع الحماس، الذي كتب فيه ما كُتب، أنه من الصعب تفسير تجاهل هذا الجانب الحضاري الذي يهمُّ العرب بطبيعة الحال. فعلى سبيل المثال نجد أن الكاتب المصري عبد المنعم حسن في كتابه «يوغسلافيا»[1] يتحدث عن بلغراد وعن تاريخها دون أن يتعرض بسطر واحد إلى تراثها الشرقي الإسلامي، مع أن في الكتاب صورة للجامع الوحيد الذي بقي في بلغراد،

---

(١) عبد المنعم حسن، يوغسلافيا، سلسلة عالم اليوم، القاهرة ١٩٦٠.

ولكن دون أي تفسيرٍ يوضح كيفية وجود مثل هذا الجامع في المدينة، مع أنه أشار في أسفل الصورة إلى أن هذا الجامع من القرن الثامن عشر.

وهذا الموقف لا يبدو فقط في المقالات والدراسات والكتب العربية التي كتبت عن يوغسلافيا، وإنما فيما ترجم أيضاً إلى العربية من كتب عن يوغسلافيا في الستينات. ولدينا نموذج من هذا في كتاب «يوغسلافيا» للكاتبين الانكليزيين م. هيبل، وف. سنجلتون[1]. ففي هذا الكتاب، الذي يتعرض فيه المؤلفان بالتفصيل لتاريخ بلغراد، لا نرى إلا وجهاً قاتماً لوجود العثمانيين دون أي سطر عن الجانب المشرق لبلغراد الذي كان يميز هذه المدينة في الوسط الأوربي.

أما فيما كتب ونشر في السبعينات عن يوغسلافيا، فلدينا استثناء وحيد في كتيب «المسلمون في يوغسلافيا» لمحمد صفوت السقا أميني[2]. ففي هذا الكتيب يشير المؤلف ولأول مـرَّة إلى التراث الحضاري الإسلامي عبر صفحتين يستعرض فيهما بإيجاز عدد الجوامع في بلغراد الإسلامية، ومصير بعض هذه الجوامع، ويتحدث عن وضع الجامع الوحيد الذي بقي في بلغراد.

وفي الواقع إن تاريخ بلغراد، كنموذج للمدينة الإسلامية في أوربا، يستحق الكثير من الاهتمام. ويأمل كاتب هذه السطور أن يكون قد أدى بهذا العمل المتواضع جزءاً من واجبه في الكشف عن بعض جوانب هذا الموضوع الذي قد يكشف عن مدى التقصير في الاهتمام بالتجربة الحضارية الإسلامية في البلقان، فبلغراد ليست إلاَّ رمزاً ونموذجاً للكثير من المدن في البلقان.

بريشتينا ٤ أيلول ١٩٨٣ — الدكتور محمد موفاكو

* * *

(١) موريل هيبل ـ ف و ب. سنجلتون، يوغسلافيا، ترجمة السيد وفائي، ومراجعة إسماعيل خليل، سلسلة كتب سياسية، القاهرة ١٩٦٣.

(٢) محمد صفوت السقا أميني، المسلمون في يوغسلافيا، بيروت ١٩٧٤.

الفصل الأوّل

بلغراد عبر القرون

يتمتع موقع بلغراد بأهمية فريدة، مما جعل هذا الموقع ـ وما أقيم عليه لاحقاً من قلعة ومدينة ـ يثير بشكل دائم رغبة كل الأطراف بالسيطرة عليه. فهذا الموقع يمتد عند التقاء نهري الدانوب والسافا، وعلى هذا فهو البوابة الشمالية للبلقان. وتنطلق من هذا الموقع شبكة مواصلات نهرية وبرية في غاية الأهمية تربط أوربا الغربية والوسطى بالشرق الأوسط في اتجاهين استراتيجيين، الأول بلغراد ـ سكوبية ـ سالونيك. والثاني بلغراد ـ نيش ـ صوفيا ـ استنبول. وقد أبرزت الحروب الصليبية ـ كما سيمر معنا لاحقاً ـ أهمية هذا الموقع للوصول إلى الشرق، كما أكدت الفتوحات العثمانية فيما بعد أهمية هذا الموقع أيضاً في التغلغل نحو الغرب.

إن أهمية هذا الموقع دفعت الرومانيين منذ القرن الأول للميلاد إلى بناء قلعة تحمي الحدود الشمالية للامبراطورية من هجمات البرابرة. وقد اشتهر هذا الموقع، بعد أن بنى الرومانيون فيه قلعتهم، باسم سينغيدونوم Singidunum ولكن فيما بعد، في بداية القرن السابع، تعرضت سينغيدونوم إلى هجمات متلاحقة من الآوار والسلاف إلى أن تمكنوا من الاستيلاء عليها وتهديمها. وبعد قرنين، ومع بروز الدول الجديدة الطموحة للتوسع، برزت أهمية هذا الموقع وتحوَّل إلى هدف أساسي لكل طرف. ففي العقد الثاني من القرن التاسع امتدت الدولة البلغارية في البلقان وتمكنت من السيطرة على هذا الموقع الذي بنيت عليه سينغيدونوم في السابق. ومع تقدير الحكم

البلغاري لأهمية هذا الموقع لحماية الحدود الشمالية للدولة، فقد تطور بسرعة كمركز حدودي محصن أخذ يشتهر منذ ذلك الحين باسمه السلافي بيوغراد ـ بلغراد. وقد ورد هـذا الاسم السلافي لأول مـرَّة في المصادر التاريخية في رسالة البابا يـوحنا الثامن للأمير البلغاري بوريس ميخائيل سنة ٨٧٨ م. الذي يخبره فيها عن تغيير أسقف بلغراد، وهذا يدل على أن بلغراد بعد نصف قرن من الحكم البلغاري قد تطورت بسرعة كقلعة تشتمل على نواة مدينة تتسع لوجود أُسقف مقيم فيها.

ومع تشكل وتوسع الدولة المكدونية في عهد الامبراطور صمويـل Samuil (٩٧٦ ـ ١٠١٤) دخلت بلغراد في إطار هـذه الدولـة الجديـدة وأصبحت أبرشيتها مرتبطة بكنيسة أوهريد Ohrid. وفيما بعد، حين حطم الامبراطور البغاري ڤاسيل الثاني Vasilije II الدولة المكدونية، انتهزت الامبراطورية البيزنطية هذه الفرصة لتسيطر على بلغراد سنة ١٠١٨ وبقيت إلى نهاية القرن الثاني عشر كقاعدة رئيسية في الحرب ضد المجر، التي تمكنت من حين لآخر من الاستيلاء على بلغراد. ففي سنة ١٠٧١ تمكن الملك المجري سولومون Solomon من الاستيلاء عليها وفي ١١٢٤ قام المجريون بهدم القلعة من أساسها. وفي عهد الامبراطور البيزنطي مانـويلو كومنن M. Komnen تمَّ تجديد القلعة سنة ١١٥٣. وخلال السنوات الـلاحقة تمتعت بلغراد ببعض الاستقرار، وخاصة بعد ١١٦٣، حين تمّ فيها التوقيع على الصلح بعد الحروب المريرة بين بيزنطة والمجر. إلاَّ أن هذا الصلح لم يستمر طويلاً لأن المجريين عادوا وتمكنوا من الاستيلاء ثانيةً على بلغراد وتهديمها سنة ١١٨٣، وذلك بعد أن بدأت الامبراطورية البيزنطية في السقوط عقب موت الامبراطور كومنن.

وفي هذه الفترة برزت أهمية بلغراد بشكل خاص خلال الحروب الصليبية كمركز أساسي للمواصلات في البلقان الذي يربط بين أوربا الغربية والـوسطى من نـاحية والشـرق الأوسط من ناحيـة أخرى، وذلـك للذين

لا يفضلون طريق البحر. وفي الواقع كان هذا الطريق مهجوراً على الرغم من أهميته بسبب انعدام الأمن. ولكن في عهد الملك المجري ستيفان الأول (٩٩٧ ـ ١٠٣٨)، الذي عمل بحزم على نشر المسيحية في بلاده، أخذ هذا الطريق ينفتح أمام القادمين من الغرب والذاهبين إلى الشرق. وفي غضون ذلك جاءت دعوة البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ لتخليص مهد المسيح من «الغزاة» وابتداءً من شباط ١٠٩٦ بدأت الأفواج الأولى من الصليبيين في استخدام هذا الطريق للذهاب إلى فلسطين بعد أن أصبحت المجر في عداد الدول المسيحية. فقد جاءت عبر هذا الطريق وعبرت بلغراد الجيوش الرئيسية للحملة الصليبية الأولى، كما مرّت فيها القوات الفرنسية والألمانية للحملة الصليبية الثانية ١١٤٧، وبعد هذا قدم إليها فريدريك قلب الأسد على رأس جيشه سنة ١١٨٩، إلاّ أنها كانت قد تحولت إلى أنقاض بعد الهجوم المجري الأخير عليها سنة ١١٨٣.

في نهاية القرن الثاني عشر برز الاهتمام ثانية ببلغراد نتيجة للصراع بين القوى الكبرى للسيطرة على مفتاح المنطقة. وفي ذلك الحين كانت الامبراطورية البيزنطية قد تداعت بسرعة وحين عادت إليها الروح سنة ١٢٦١ كانت قد فقدت أية صلة ببلغراد. ومنذ ذلك الحين أصبحت بلغراد مصدراً دائماً للنزاع بين الدولتين الطموحتين، بلغاريا والمجر. فمنذ سنة ١٢٠٤ ركز البلغاريون اهتمامهم على بلغراد وتمكنوا من السيطرة عليها والاحتفاظ بها إلى سنة ١٢٣٢، حين تمكن المجريون من إبعاد البلغاريين عنها وبعد هذا استقرت بلغراد لفترة من الزمن تحت الحكم المجري. وفي غضون هذا كان العنصر الصربي، من السلاف الجنوبيين، قد أخذ يبرز في المنطقة. وقد تقرب أحد الأمراء الصربيين، دراغوتين Dragutin، من البلاط الهنغاري في عهد الملك ستيفان الرابع وأصبح صهراً له بزواجه من ابنته. ونتيجة لهذا حصل الأمير دراغوتين نتيجة اتفاق مع البلاط المجري سنة ١٢٨٤ على بلغراد كجزء من منطقة ماتشفا Macva. وفي هذا الإطار دخلت بلغراد لأول مرة تحت الحكم الصربي مع أن الملك دراغوتين أصبح يحكم هذه المنطقة

بما فيها بلغراد كتابع للبلاط المجري فقط. وخلال فترة حكم الملك دراغوتين ١٢٨٤ ـ ١٣١٦ ـ الذي بقي وفياً للبلاط المجري حتى وفاته ـ كانت بلغراد أكبر مدن هذه المنطقة االتي مُنحت له، بل ومركزها الديني، نظراً لأنه بنيت فيها خلال حكمه كنيسة متروبولية خلال سنوات ١٢٨٤ ـ ١٣١٥. باستثناء هذا لا تمدنا المصادر التاريخية بما يساعد على معرفة ما لحق ببلغراد من تطور خلال تلك الفترة. وبعد وفاة دراغوتين قام أخوه الملك ميلوتين Milutin الذي كان يحكم منطقة مجاورة لأخيه، بالاستيلاء على أملاك أخيه بما في ذلك بلغراد. إلا أن هذا العمل كان يَعْني شيئاً آخراً للمجر، التي اعتبرت هذا احتلالاً لمنطقة تابعة لها وتمهيداً لإلحاقها بالدولة الصربية. وقد حاول الملك ميلوتين أن يثبت وضعه في بلغراد وذلك بتقربه وتحالفه مع الأمراء المجريين في تمردهم ضد الحكم المركزي، إذ أن الملك المجري كارلوروبرت K. Robert كان يقود في ذلك الحين معركة حاسمة ضد الأمراء الراغبين بالتحرر من الحكم المركزي. وبعد استقرار الوضع وجه الملك المجري في سنة ١٣١٩ جيشه ضد الملك ميلوتين لاسترداد منطقة ماتشفا مع بلغراد، وبعد انتصاره في أيلول عادت هذه المنطقة مع بلغراد مرةً ثانية إلى الحكم المجري.

وخلال القرن الرابع عشر تمتعت بلغراد بـالاستقرار تحت الحكم المجري، واستمر ذلك إلى أن برز العثمانيون على مسرح الأحداث. وكان العثمانيون قد بدأوا يتغلغلون في البلقان منذ منتصف القرن الرابع عشر وبعد انتصارهم في معركة كوسوفا Kosova الحاسمة سنة ١٣٨٩، ضد تحالف مسيحي من الأمراء البلقانيين بقيادة الملك الصربي، أصبحت لهم قواعد ثابتة في البلقان مما دفع البابا للدعوة إلى حرب صليبية جديدة. وقد تشكل فعلاً جيش أوربي بقيادة ملك المجر وحفيد ملك فرنسا، إلاَّ أن العثمانيين تمكنوا من الانتصار عليه في معركة نيكوبوليس سنة ١٣٩٦. ونتيجة لهذه المعركة الحاسمة انتهى الوضع في البلقان لصالح العثمانيين، ومع تحول الدولة الصربية إلى دولة تابعة لهم أصبح العثمانيون على حدود المجر. ومع بروز

الخطر المغولي في المشرق ذهب الحاكم الصربي ستيفان لازارفيتش S . Lazarevié ليحارب في صفّ العثمانيين ضد تيمورلنك في المعركة الفاصلة التي جرت قرب أنقرة سنة ١٤٠٢. ومع هزيمة الجيش العثماني وأسر السلطان بايزيد الأول، والفوضى العامة التي أعقبت ذلك، أراد ستيفان انتهاز هذه الفرصة فعاد بسرعة إلى بلاده عن طريق القسطنطينية، حيث حصل من الامبراطور* البيزنطي على لقب دسبوت Despot (أمير بيزنطي). وقد بادر الأمير ستيفان بعد عودته إلى بلاده وتحرره من العثمانيين إلى التقارب مع المجر، التي كان يحكمها حينئذ الملك جيغموند Gigmund. وفي الواقع وجد الأمير ستيفان لدى الملك المجري الدعم الذي كان يحتاج إليه، لأن الملك بدوره كان يحتاج إلى هذا الأمير كحاجز لتأمين حدوده الجنوبية من الهجمات العثمانية المتوقعة. وهكذا أدت هذه المصلحة المشتركة بين الطرفين إلى تعاون واتفاق لاحق. وحسب هذا الاتفاق، الذي تم خلال ١٤٠٣ - ١٤٠٤، حصل الأمير ستيفان على بلغراد من الملك المجري مقابل تبعيته للملك جيغموند.

وكانت بلغراد تعني الكثير للأمير ستيفان، إذ أنه أرادها أن تكون عاصمة له نظراً لكونها تقع في نهاية حدوده في الشمال، وبالتالي أبعد ما يكون عن العثمانيين، بالإضافة إلى أهمية موقعها الاستراتيجي. وقد اهتم الأمير ستيفان خلال حكمه ١٤٠٣ - ١٤٢٧ بتحصين بلغراد فجدد بناء القلعة وأقام الأسوار والأبراج لحمايتها. وبدافع من رغبته لتحويل بلغراد إلى عاصمة له فقد أقام الأحياء السكنية وشجع التجار الصربيين والأجانب على القدوم والإقامة فيها، كما منح السكان المقيمين فيها الامتيازات التي تشجع الآخرين على القدوم للإقامة فيها. وهكذا، خلال حكم الأمير ستيفان، أصبح سكان بلغراد يتألفون من القادمين من صربيا، والمجر، والبوسنة، وحتى من راغوصة (دوبروفنيك) والبندقية. وقد أدى تشجيع الأمير للتجار إلى بداية ازدهار التجارة التي كانت تقوم بشكل رئيسي على المعادن (الفضة، النحاس، والرصاص). ومع أن بلغراد أصبحت وقتئذ عاصمة للإمارة إلّا أن

المصادر لا تقدم لنا معطيات واضحة عن تطور الحِرف خلال هذه الفترة باستثناء ذكر خيَّاط، وجلَّاد. ومن ناحية أخرى كانت بلغراد خلال عهد الأمير ستيفان مركزاً دينياً للإمارة، وبعبارة أخرى مقراً لمتروبولية بلغراد. ففي هذا العهد بنيت كنيسة متروبولية كبيرة، بالإضافة إلى وجود ثلاثة كنائس صغيرة للأرثوذوكس. وفي هذا العهد استمرت في نشاطها أيضاً الأبرشية الكاثوليكية مع وجود كنيسة خاصة بتجار راغوصة. ومع هذا التطور بقيت بلغراد مدينة صغيرة يغلب عليها طابع القلعة. فقد كانت مؤلفة في الواقع من قسمين، القسم المرتفع فوق الرابية والقسم المنخفض الذي يمتد إلى الشاطىء، وحول هذين القسمين سور لحماية المدينة القلعة. وباستثناء قرية صغيرة بالقرب من هذه المدينة ـ القلعة، التي ذكرها الرحالة بروكيير سنة ١٤٣٣، لا يوجد لدينا ما يدل على وجود أحياء سكنية خارج السور وفي داخل السور، باستثناء القلعة في القسم المرتفع، كان القسم المنخفض لا يتميز إلاّ ببلاط الأمير والكنيسة المتروبولية.

في غضون هذا كان السلطان العثماني محمد الأول (١٤١٣ ـ ١٤٢١) قد سيطر على الوضع، بعد الحرب الأهلية التي استمرت عشر سنوات (١٤٠٢ ـ ١٤١٢) نتيجة للصراع على وراثة العرش، وعاد للاهتمام بمتابعة الفتح في البلقان. وقد أثّر هذا الضغط العثماني على المجر وعلى مصير بلغراد. فقد رأت المجر أن صربيا لا تشكل دفاعاً كافياً عنها أمام العثمانيين، ولذلك صممت على أن تأخذ على عاتقها الدفاع بشكل مباشر عن حدودها الجنوبية على طول نهر الدانوب. ولأجل هذا عقد اتفاق جديد مع الأمير ستيفان سنة ١٤٢٦ التزم بموجبه أن يقوم خليفته بإعادة بلغراد إلى المجر. وهكذا، بعد وفاة الأمير ستيفان في السنة اللاحقة ١٤٢٧، قام خليفته الأمير جورج بتسليم المدينة إلى الملك المجري جيغموند في تشرين الثاني ١٤٢٧. ويبدو أن توقّع الملك المجري كان في محله، إذ أن العثمانيين ما إن سمعوا بوفاة الأمير ستيفان حتّى تغلغلوا في صربيا وتمكنوا من فتح كروشفاتس Kruŝevac. ونتيجة لذلك اقتربت خطوط التماس بين العثمانيين

والمجريين وأصبحت بلغراد منذ ذلك الحين تمثل بالنسبة للمجر المركز الأساسي للدفاع أمام تقدّم العثمانيين.

وخلال القرن الخامس عشر، وبعد أن عادت بلغـراد إلى الحكم المجري المباشر، اهتم ملوك المجر بتطوير بلغراد كمدينة مجرية بعد أن أصبحت مفتاح المجر أمام العثمانيين. وفي الواقع قام الملك جيغموند فور استرداده للمدينة بدعوة الحرفيين المجريين من المناطق القريبة لـلانتقال والإقامة في بلغراد بهدف تأكيد الوجود المجري ومركزته في المدينة. ومع هذا أعلن الملك جيغموند عن رغبته في أن تكون بلغراد مؤلفة من غالبية كاثوليكية، وكان هذا ينسجم مع تعصب الملك للكاثوليكية بعد أن قاد معارك دموية ضد الهوسيت Husit باسم «الدِّين الحق» (الكاثوليكية). وفي الواقع حصلت الكنيسة الكاثوليكية على امتيازات كبيرة في هذه الفترة. فقد نشطت الأبرشية الكاثوليكية ووصل عدد الكنائس الكاثوليكية إلى ثلاثة، وزاد عدد رجال الدِّين في المدينة بعد ١٤٢٧.

ومع ذلك فقد أدى سقوط صربيا بشكل نهائي بيد العثمانيين سنة **١٤٥٩** إلى هجرة الكثير من الصربيين في اتجاه الأراضي المجرية، بما في ذلك مدينة بلغراد حيث استقر قسم منهم بعد تلك السنة. وفي الحقيقة كانت المجر تقبل بسرور هؤلاء المهاجرين على أمل أن يكونوا حاجزاً بشرياً تستفيد منه في صدّ العثمانيين. وعلى الرغم من ذلك الترحيب بالمهاجرين الصربيين من طرف الحكم المجري، الـذي منح لهم الأعمـال في بلغراد وحتّى الأراضي في ضواحيها في بعض الأحيان، إلاّ أن الصربيين كانوا وبقوا مواطنين من الدرجة الثانية في هذه المدينة. ويدل على ذلك ما ذكره الرحالة بروكيير سنة **١٤٣٣** من أن الصربيين لم يكن يسمح لهم بالإقامة في القسم المرتفع أو حتّى الاقتراب منه، بل كانوا يعيشون في الضواحي لأن السلطات المجرية لم يكن لها ثقة فيهم. ويؤكد هذا أن متروبولية بلغراد قد فقدت الكثير من امتيازاتها وأملاكها وأصبحت فقيرةً إلى الحد الذي دفع متروبوليت

بلغـراد لأن يطلب المسـاعدة المـادية من أميـر موسكـو فاسيـل الثـالث (١٥٠٣ ـ ١٥٣٣).

خلال هذه الفترة كان العثمانيون قد تقدموا في البلقان واستقروا في المناطق التي فتحوها. وقد أدرك العثمـانيون منـذ ذلك الحين الأهميـة الإستراتيجية لبلغراد كبوابة للعبور خارج البلقان لتحطيم القوة الرئيسية التي بقيت أمامهم في المنطقة «المجر» وهكذا، بعد استعدادات طويلة، جاء دور بلغراد في نيسان ١٤٤٠ حين قام السلطان مراد الثاني بحصار بلغراد تمهيداً لفتحها. وقد استمر هذا الحصار ستة أشهر ولم يتمكن السلطان في النهاية من اقتحام قلعة بلغراد. وفي تموز ١٤٥٦ قاد السلطان محمد الفاتح جيشاً أكبر وحاصر بلغراد هذه المـرَّة من البر والنهـر (الدانـوب) مع قصفٍ عنيف بالمدافع. وبعد الهجوم الرئيسي، الذي جُرح فيه السلطان نفسه، استمر الحصار حول بلغراد أربعين يوماً وليلة.

وقد استثار هذا الحصار ردة فعل صليبية في أوربا، فقدم القـائد المجري المعروف هونياد Hunyad والفرنسيسكاني كابيستران Kapistran، الذي جلب معه قوات صليبية من ألمانيا وبولونيا، لفك الحصار عن بلغراد. ومع انتصار هذه القوات، واضطرار العثمانيين للانسحاب، سادت أوربا نشوة عارمة وأصبحت بلغراد لدى كُتَّاب القرن الخامس عشر «حصـن المسيحيـة» و «مفتاح المجر». ومع هذا فقد كان لحصار سنة ١٥٤٦ تأثيرات كبيرة على بلغراد، إذ أصاب اقتصاد المدينة بضربة قوية. فقد أصيبت المدينة، وخاصة القسم المنخفض الذي يشمل الأحياء السكنية، بأضرار كبيرة. وبعد هذا الحصار تراجعت بلغراد كمركز اقتصادي وأخذت تبرز أكثر كمركز عسكري بعد أن انتهت إلى مجرد قلعة مجرية حدودية، بعد أن تمكن العثمانيون من فتح كل صربيا حتى ١٤٥٩. وفي هذه الظروف تراجعت التجارة كثيراً وغادر المدينة الكثير من تجار راغوصة ولم يعودوا إليها.

وعلى كل حال، وبعد إخفاق العثمانيين أمام أسـوار بلغراد، قـام

السلطان محمد الفاتح بمتابعة الفتوحات وتوطيد الوجود العثماني في أطراف البلقان ليتفرغ فيما بعد لفتح بلغراد. وفي سنة ١٤٦٣ تم فتح البوسنة واستقرت ألبانيا تحت الحكم العثماني، وأخيراً تمكن العثمانيون من فتح منطقة الجبل الأسود سنة ١٤٩٩. وهكذا في السنوات الأولى للقرن السادس عشر كان العثمانيون قد تمكنوا من السيطرة على البلقان ولم يبق أمامهم إلّا بلغراد «مفتاح المجر» لكي يتمكنوا من مواصلة فتوحاتهم خارج البلقان في اتجاه الشمال إلى وسط أوربا، وقد جاء دور بلغراد أخيراً في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦). فعلى ما يذكر الرحالة أوليا شلبي كان هذا «المثقف والعارف بالتاريخ وأحوال العالم» قد اهتم ببلغراد منذ أن كان ولياً للعهد وعبّر منذ ذلك الحين عن أمنيته قائلاً: «إذا منحني الله الحكم فسأوجه جيشي إلى بلغراد». وهكذا، بعد سنة فقط من توليه للحكم، قاد السلطان سليمان جيشاً ضخماً لفتح بلغراد، التي وصلها في منتصف تموز (١٥٢١). وقد بدأ بقصف قلعة بلغراد في أواخر تموز، واستمر طيلة آب. وخلال القصف قام الجيش العثماني بهجومه الأول في (٢ - ٣) آب ثم بهجومه الثاني في ٨ آب، الذي استمر من الصباح وإلى المساء لينتهي بفتح القسم المنخفض من المدينة المحصنة، بعد أن لجأ سكان هذا القسم إلى القسم المرتفع من القلعة، حيث قبلتهم القيادة العسكرية بعد ممانعة لقلة المؤونة. وقد استمر العثمانيون في حصارهم للقلعة، الذي صادف طيلة رمضان، إلى أن استسلمت في (٢٦) رمضان ٩٢٧ هجرية = ٢٩ آب ١٥٢١.

وحول وقائع ذلك اليوم يذكر مؤلف «يوميات حول حملة السلطان سليمان إلى بلغراد» ما يلي: «بعون الله تعالى تمَّ اليوم فتح قلعة بلغراد... وارتفع صوت المؤذن من القلعة». وقد صادف اليوم التالي الجمعة (٢٧) رمضان، وهكذا التقت هاتان المناسبتان، يوم الجمعة والسابع والعشرون من رمضان، واختار السلطان سليمان هذا اليوم للدخول إلى بلغراد وسط احتفال كبير. وعلى عادة العثمانيين في تحويل إحدى الكنائس إلى جامعٍ عقب فتحهم لكل مدينة في البلقان تخليداً لانتصارهم، قام العثمانيون بتحويل

الكنيسة الواقعة في القسم المنخفض من المدينة إلى جامع حيث أقيمت فيه فوراً صلاة الجمعة من ذلك اليوم.

وفيما يتعلق بسكان المدينة وحاميتها، التي قاومت بشدة الجيش العثماني خلال هذا الحصار الطويل، تجدر الإشارة هنا إلى أن السلطان سليمان تعامل مع هؤلاء بتسامح نادر. فقد عفا السلطان سليمان عن كل السكان والعسكريين المجريين، بعد أن قاوموه أكثر من شهر، واستجاب لرغبتهم بالسماح لهم بالذهاب إلى المجر، واستثنى من هذا قائدين عسكريين فقط أمر بإعدامهما. وقد ذهب السلطان سليمان في تسامحه إلى حد سماحه للسكان والعسكريين المجريين بحمل ثرواتهم إلى المجر. ولكن من ناحية أخرى، تعامل السلطان سليمان بشكل مختلف مع الصربيين الذين وجدوا في المدينة. فقد أمر السلطان في ٢٩ آب بترحيل هؤلاء إلى استنبول للإقامة هناك، مع السماح لهم بأخذ ثرواتهم وكنوزهم الدينية. وقد غادر هؤلاء بلغراد في اليوم التالي، (١٠) آب، وحملوا معهم ثرواتهم وكنوزهم الدينية، كأيقونات كنيسة مريم العذراء، وتم توطينهم في قرية قرب استنبول، وفي الحي الجنوبي الغربي من المدينة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإدارة العثمانية سمحت لهم ببناء كنيسة خاصة بهم في هذا الحي، كنيسة مريم العذراء، وذلك تعويضاً عن كنيستهم في بلغراد، ووضعوا في هذه الكنيسة الأيقونات التي حملوها من بلغراد.

وكان فتح بلغراد من أهم الأحداث التي شهدتها أوربا في القرن السادس عشر، فقد تحول «حصن المسيحية»، كما كانت تسمى بلغراد في ذلك الحين، إلى «دار الجهاد» و«بوابة الحروب» بعد أن استقرت في أيدي العثمانيين، فمع فتح بلغراد وضع العثمانيون يدهم على «مفتاح المجر» ومن هنا تابعوا فتوحاتهم داخل المجر وفي وسط أوربا. فبعد انتصارهم الحاسم في موهاج سنة (١٥٢٦) فتح العثمانيون عاصمة المجر بودا، وحتى إنهم حاصروا ڤينا أخيراً سنة (١٥٢٩).

* * *

الفصل الثاني

بلغراد بوّابة الشرق والإسلام في أوروبّا

كانت بلغراد، حتىٰ الفتح العثماني، يطغىٰ عليها الطابع العسكري لأهمية موقعها الاستراتيجي، وقد ساهمت هذه الأهمية في تأكيد دورها كقلعة حصينة علىٰ حساب تطورها كمدينة تقوم علىٰ نشاط اقتصادي أو تجاري بارز. وهكذا عندما فتح العثمانيون بلغراد سنة ١٥٢١ كانت هذه عبارة عن قلعة ضخمة في القسم المرتفع مع عدة أحياء سكنية في القسم المنخفض، بحيث كان من الصعب تقدير عدد السكان بأكثر من عدة آلاف. وفي الواقع لقد استمرت بلغراد في السنوات الأولىٰ من الحكم العثماني كقلعة وكمركز عسكري رئيسي تنطلق منه الجيوش العثمانية لمتابعة الفتوحات في اتجاه الشمال. ولكن، بعد أن اتسعت حدود الامبراطورية العثمانية شمالاً بفتح بودابست عاصمة المجر سنة (١٥٢٦)، أخذت بلغراد تتطور بسرعة وبشكل مثير من قلعة حدودية إلىٰ مدينة ذات نشاط اقتصادي وتجاري بارز في البلقان. فنظراً لموقعها الهام كعقدة مواصلات لأوربا الجنوبية الشرقية تطورت بلغراد بسرعة كمركز للانتاج الحرفي وكوسيط تجاري بين الشرق (الامبراطورية العثمانية) والغرب (عبر موانيء البحر الأدرياتيكي والأراضي النمساوية). وهكذا، بعد قرن واحد فقط، أصبحت بلغراد من أكبر المدن في أوربا الشرقية. وفي الواقع كان هذا التطور المثير بطابع شرقي إسلامي حتىٰ إن بلغراد في بداية القرن السابع عشر أصبحت، كما يقول المؤرخ المعاصر د. بوبو فيتش D . Popovié تشبه دمشق أو غيرها من مدن الشرق

بسكانها ومنشآتها وثقافتها وتقاليدها، حتى أنها اشتُهرت لدىٰ الرحالين الأوربيين باسم «بوابة الشرق» لأن الرحالة الأوربي القادم من الغرب كان مع دخوله إلى بلغراد يشعر بأنه قد تجاوز الغرب وأصبح داخل الشرق. ففي ظل الحكم العثماني، كما يذكر الرحالة الانكليزي براون، أصبحت بلغراد جزءاً من عالم يختلف تماماً عن الغرب، جزءاً من ذلك العالم الآخر الذي يمتد إلىٰ الصين وأعماق آسيا.

وفي الواقع، إذا استثنينا استنبول وبالتحديد القسم الأوربي منها، كانت بلغراد في تلك الفترة أكبر وأهم مركز للحضارة الإسلامية في أوربا وكانت بالتالي نموذجاً للمدينة الإسلامية بالمعنىٰ الحضاري.

الوضع الإداري

بعد الفتح العثماني أصبحت بلغراد مركزاً لسنجق سمدِرْفو Smedervo في إيالة الروملي وبقيت علىٰ هذه الحالة إلىٰ أن استردّ العثمانيون بودا وشكّلوا باشوية بودا سنة (١٥٤١)، حيث دخل سنجق سمدرفو في إطار هذه الباشوية. وقد أصبحت بلغراد مدينة مهمة داخل هذه الباشوية انطلاقاً من موقعها المناسب لمتابعة الفتوح. وخلال هذه الفترة كانت بلغراد مقراً للقائمقام، نائب باشا بودا، الذي كان يتولىٰ إدارة سنجق سمدرفو وكان غالباً يحمل لقب باشا. وفيما بعد، عقب السيطرة النمساوية علىٰ بودا سنة (١٦٨٦)، أصبحت بلغراد مركزاً لباشوية جديدة تحمل اسم «باشوية بلغراد».

التطور الاقتصادي

كان لمركز بلغراد، الذي يقع في أهم تقاطع للطرق البرية والنهرية، أثر كبير في تنشيط الدور الاقتصادي لهذه المدينة. فعبر هذه المدينة كانت الطرق البرية تؤدي إلىٰ الشرق في اتجاهين، كان الأول ينطلق من بلغراد إلى سالونيك ومن هنا عبر البحر إلىٰ الموانىء المصرية والسورية، بينما كان الثاني ينطلق إلىٰ صوفيا، فاستنبول، ومن هنا عبر البرّ إلى دمشق وغيرها من

المدن الشرقية. ومن ناحية أخرىٰ كان في بلغراد يلتقي نهر السافا في الشريان الحيوي الآخر لأوربا الشرقية (الدانوب)، الذي كان يصبّ أخيراً في البحر الأسود، مما كان يتيح لبلغراد أن تكون علىٰ اتصال بعدد كبير من البلاد. ومن بلغراد كانت الطرق تتجه شمالاً إلىٰ النمسا، وبولونيا، إلى أن تصل إلى سويسرا وغرباً إلىٰ موانىء البحر الأدرياتيكي ومنها إلىٰ غرب أوربا. ولقد أدىٰ هذا الموقع الاستراتيجي الذي امتازت به بلغراد إلى أن تقوم هذه المدينة بدور كبير كوسيط تجاري بين الشرق والغرب، وبالتحديد بين البلاد العربية، والبلاد الأوربية. وفي الواقع لقد وصل هذا الدور التجاري لبلغراد إلى ذروته في القرن السابع عشر. فعلىٰ ما يذكر الرحالة المعروف أوليا شلبي، الذي زار بلغراد سنة (١٦٦٠)، كان يأتي كل سنة إلىٰ بلغراد (٥ ـ ٦) آلاف حمل من البضائع علىٰ الجمال والعربات من مصر، ودمشق، وصيدا، وبيروت، وبشكل عام من مختلف البلاد العربية وفارس.

وهذه البضائع، كما يضيف شلبي، كانت تُعَدُّ في بلغراد لكي يتم تصديرها ثانية إلىٰ المجر وبولونيا وتشكوسلوفاكيا والسويد والبندقية إلخ. ولكن، إلىٰ جانب هذا، كان قسم لا بأس به من البضائع وخاصة من الأقمشة يصل من البلاد العربية لحاجات السكان في بلغراد، الذين بغالبيتهم الإسلامية كانوا يعيشون ويتزيون على النمط الشرقي الإسلامي، وحتّى إن المسيحيين من سكان بلغراد أصبحوا مع الزمن يقلدون المسلمين في حياتهم ولباسهم. وحول هذا تفيدنا سجلات تجار راغوصة من منتصف القرن السادس عشر في معرفة ما كان يصل إلى بلغراد من الأقمشة واللباس من البلاد العربية للاستهلاك المحلي. فمن الأقمشة كان يصل إلى بلغراد الأطلس Atlas و القطيفة Katife و القماش Kumas (الحزام الأسود من القطيفة) والبروكار Brokat والدامسك Damast (نسبة إلى دمشق) والموسلين Muzolanka (نسبة إلى الموصل) والحرير من سوريا والطرابيش من تونس. ومن ناحية أخرى امتازت بلغراد في تصدير المواد الأولية (الجلود، الصوف، الصمغ، الحبوب، الخ) التي كانت تأتي من داخل الامبراطورية العثمانية،

وذلك إلى موانىء البحر الأدرياتيكي والأراضي النمساوية منذ منتصف القرن السابع عشر. ففي ذلك الحين، حيث يصبّ نهر الساقا في الدانوب، كان ببلغراد ميناء هام يتسع لستين سفينة صغيرة.

وإلى جانب التجارة ازدهرت الحرف بشكل مثير في بلغراد خلال العهد العثماني. فوجود الجيش العثماني في القلعة، وما يعني ذلك من ضرورة توفير الخدمات المختلفة، أدىٰ منذ السنوات الأولىٰ للحكم العثماني إلى بروز الحرفيين في المدينة. ولقد نشأت الحرف الأولىٰ الأساسية لتلبية حاجات الجيش، ثم برزت بعد ذلك مع اتساع المدينة وتطور المجتمع فيها حرف كثيرة لتلبية الحاجات الجديدة لسكان المدينة ولمجتمع الرفاهية. وقد جاء الحرفيون من المناطق المختلفة للبلقان، التي كانت قد استقرت تحت الحكم العثماني خلال القرن الخامس عشر، وجلبوا معهم هذه الحرف الجديدة مع اسمائها الشرقية. ويوفر لنا إحصاء (١٥٣٦) أي بعد ١٥ سنة فقط من الحكم العثماني، معطيات تدل بوضوح علىٰ تطور الحرف خلال هذه الفترة. ففي هذا الإحصاء لدينا خمسة خياطين، وستة سراجين، وطبيبان وثلاثة قصابين، وثلاثة جزماتية، وعشي، وبُركجي (بائع للبرك ـ الفطائر) وبائعان للحلوىٰ، وقازانجي، ومبيّض للصحون، وسيوفي، وبقّالان، وسقّاء، إلخ.

وفي النصف الثاني للقرن السادس عشر ازدهرت الحرف بشكل واضح في المدينة مع ازدياد عدد الحرف الأساسية وبروز الحرف الجديدة. ففي احصاء (١٥٦٠) يبرز الآن أربعة عطارين، وثمانية حلاقين، وقزاز، وصابونجي إلخ. ومع ازدهار الحرف برز نظام الأصناف في بلغراد كما في أية مدينة إسلامية أخرى. وفي الواقع إن أقدم ذكر للأصناف يرد في إحصاء (١٥٦٠) الذي يذكر فيه «صنف الدباغين» و «صنف السراجين» و «صنف الجزماتية». ويكفي أن نشير هنا إلىٰ أن العالم منيري البلغرادي (توفي ١٦١٦) قد ألف كتاباً خاصاً بعنوان «نصاب الانتساب وأدب الاكتساب» يتعرض فيه لموقف الشريعة من الاقتصاد علىٰ ضوء تجربة نظام الأصناف في بلغراد.

ومما ساعد علىٰ تطور التجارة والحرف في بلغراد المنشآت المختلفة التي كانت ترتبط بالطابع المميز للمدينة الشرقية الإسلامية، والتي لم يكن لها مثيل في البلاد الأوربية المجاورة. ومن أهم هذه المنشآت كانت استراحات القوافل القادمة من الخارج، والتي اشتهرت هنا باسم كارافان ساراي Kara-van Saraj. وهذه الاستراحات كانت علىٰ نوعين، قسم منها كان يتبع الأوقاف الإسلامية ويقدم خدماته مجاناً، والقسم الآخر مقابل أجرة رمزية. وقد وجد أوليا شلبي حين زار بلغراد ست استراحات من هذا النوع، ذكر منها ثلاث استراحات للأوقاف. ومن هذه التي ذكرها شلبي وصف لنا استراحة سوكولوفيتش للقوافل التي كانت تبدو كالقلعة، إذ أنها كانت تحتوي علىٰ ستين قاعة في الطابق الأرضي والأول مع إسطبل للجمال وآخر للخيل. وفي هذه الاستراحات التابعة للأوقاف كان المسافر والتاجر يقيم مجاناً، وكان يقدم لكل واحد دون تمييز صحناً من الشوربة وقطعة لحم ورغيف خبز دون مقابل. وقد ذكر أوليا شلبي في حديثه عن بلغراد استراحة القوافل الأخرىٰ التي بناها محمد باشا يحيىٰ لي، حيث لا يدفع القادم إلىٰ هذه الاستراحة شيئاً، ولو بقي شهراً من الزمن بل كان يكفيه أن يقرأ الفاتحة علىٰ روح منشئها بعد انتهاء إقامته فيها.

وإلى جانب هذا كان في بلغراد أيضاً البزستان Bezistan وهو ما كان كثيراً يثير إعجاب الأوربيين لكونه يجمع الأصناف الكثيرة من البضائع. وقد ازدهرت في بلغراد أيضاً الخانات، وهي التي كانت تستخدم كاستراحة للمسافرين وكبيوت تجارة. وخلال زيارة أوليا شلبي لبلغراد سنة (١٦٦٠) كان في هذه المدينة واحد وعشرون خاناً. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه مع مرور الزمن تطور دور هذه الخانات مع ازدهار التجارة والحرف فيها، وأصبح كل خان يُعرف باسم أهم المواد التي تتم التجارة فيها.

المنشآت الحضارية

يمكن القول: إن بلغراد بما امتازت من منشآت حضارية تقدم نموذجاً للمدينة الإسلامية. وبطبيعة الحال لا نقصد هنا بـ «المدينة الإسلامية» تلك

المدينة التي تسودها العقيدة الإسلامية بشكل أو بآخر، أو التي تقام فيها الشعائر الإسلامية، بل ما نريده هنا توضيح الامتداد الحضاري للإسلام الذي يبدو في نموذج بلغراد، حيث يبشر مدىٰ الارتباط بين القاعدة الأساسية للإسلام (الجامع) وبين التطور الحضاري الشامل لمدينة ما. وفي الواقع إن نموذج بلغراد يقدم أيضاً مادةً غنيةً لدور مؤسسة الوقف الإسلامية، وهو ما يميز أساساً نمو المدن الإسلامية في أوربا، تلك التي قامت علىٰ أساسها معظم المنشآت الحضارية التي كانت تؤدي دوراً أساسياً في نشر الإسلام كحديث وحضارة.

ـ الجوامع والمساجد

كان من عادة العثمانيين، كما مرّ معنا، حين يتصدون ويدخلون فاتحين إحدىٰ المدن أن يحولوا إحدىٰ الكنائس فيها إلى جامع ليقيموا به فوراً الصلاة الأولىٰ رمزاً لانتصارهم. وقد حدث هذا، كما ذكرنا سابقاً، في بلغراد أيضاً. فقد صادف فتح المدينة يوم الخميس وقام العثمانيون باختيار كنيسة «مريم العذراء» في القسم المنخفض من بلغراد، ليحولوها إلى جامع وليقيموا بها صلاة الجمعة في اليوم التالي. وهذه الكنيسة، التي كانت تخصّ الصرب الأرثوذوكس، اشتهرت بعد التعديلات التي أدخلت عليها باسم «جامع السلطان سليمان»[1]. وقد قام العثمانيون في السنة ذاتها ـ وربما يعود هذا إلى رغبتهم بعدم تفضيل طائفة علىٰ أخرى ـ بتحويل كنيسة أخرىٰ للكاثوليكيين إلى جامع، وهي التي كانت تقع في القسم الدانوبي بالقرب من القلعة. وحول هذا يبالغ الآن بعض المؤرخين المعاصرين إلى حد القول ـ دون أن يقدموا أدلة قاطعة ـ بأن العثمانيين بعد فتحهم لبلغراد قاموا فوراً بـ «هدم أو تحويل الكنائس إلى جوامع».

وفي الواقع إن هذا من التعميمات التي يراد منها تشويه صورة الحكم العثماني، مع أن العثمانيين كانوا قد اعتمدوا سياسة تسامح تتناقض تماماً مع

(١) لمزيد من التفاصيل حول جوامع بلغراد انظر الملحق في نهاية الكتاب.

ما كان سائداً في ذلك الحين في أوربا. فخلال الحكم العثماني زاد عدد الكنائس في بلغراد ووصل إلى ثمان كنائس في منتصف القرن السابع عشر وذلك في مقابل مئتي جامع ومسجد تقريباً، تعكس تركيب السكان بين أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية. وعلىٰ كل حال، إن ما قام به العثمانيون لدى فتحهم لبلغراد، بتحويل كنيستين إلى جامعين، يعتبر في قمة التسامح إذا ما قارناه بما حدث بعد ذلك لجوامع بلغراد خلال حرب الاسترداد، التي سنتعرض لها في فصل لاحق.

بدأ العثمانيون في بناء المساجد والجوامع في السنوات الأولى. ففي المدينة، خارج القلعة، بني أول مسجد سنة (١٥٢٣) أو (١٥٢٤) وسُمي باسم منشئه فرحات باشا. وفيما بعد، إلى سنة (١٥٢٨)، بني في المدينة مسجدان آخران، أحدهما قام ببنائه أحمد آغا والثاني زين الدين آغا. وفي السنوات اللاحقة بني عدد من الجوامع في القسم المنخفض من القلعة: «جامع علي طيره» (قبل ١٥٣٦) و «جامع حسن آغا» (قبل ١٥٦٠). وكان هذا يتناسب بطبيعة الحال مع بداية تطور المدينة. ففي سنة (١٥٣٦) استناداً إلى الوثائق العثمانية، كان في بلغراد أربعة أحياء للعثمانيين تشتمل على (٧٩) بيتاً وأربعة جوامع. ومن أهم الجوامع التي بنيت خلال هذه الفترة كان «جامع السلطان سليمان»، في القسم المرتفع من القلعة (قبل ١٥٦٦)، الذي أبدع في بناء مِئْذَنَتِهِ المعماري الألباني المعروف سنان، الذي يصفه منتزل في «دائرة المعارف الإسلامية» كواحد «من أعظم المعماريين الذين ظهروا في التاريخ». وقد وصف لنا أوليا شلبي خلال زيارته لبلغراد سنة (١٦٦٩) هذا الجامع وأشاد بشكل خاص بمئذنته «الأنيقة والبديعة والشامخة». وتجدر الإشارة هنا إلى أن شلبي نقل لنا ما قاله المعمار سنان عن هذه المئذنة: «لقد أبديت قمة مهارتي في هذه المئذنة. كانت هذه تجربة كبيرة لي وليحاول المعماريون الآخرون ـ إن استطاعوا ـ أن يبنوا مئذنة فنية علىٰ هذه الشاكلة».

ومع تطور المدينة واتساعها أخذ عدد الجوامع والمساجد يزداد أيضاً في

بلغراد. ففي سنة (١٥٣٦) تفيدنا المصادر العثمانية بأن عدد أحياء المسلمين أربعة وعدد الجوامع أربعة أيضاً. وفي (١٥٧١) ارتفع عدد أحياء المسلمين إلى واحد وعشرين حياً، ويمكن لنا أن نقدّر استناداً إلى هذا عدد الجوامع في ذلك الحين بحوالي عشرين جامعاً. وفي الواقع تنقصنا المعطيات حول عدد الجوامع والمساجد في بلغراد إلى نهاية القرن السادس عشر، وهذا يعود أيضاً إلى أن الرحالة الأوربيين لم يهتموا في كتاباتهم بإحصاء عدد الجوامع والمساجد في بلغراد. إلا أن الحالة تختلف منذ بداية القرن السابع عشر، حيث تتوفر لنا منذ ذلك التاريخ معطيات كثيرة عن الجوامع والمساجد في بلغراد. فالرحالة م . برانشتتر Pranshteter، الذي زار بلغراد سنة (١٦٠٨)، يذكر لنا وفي وصفه للمدينة أن بها ستين جامعاً. وعن هذه الفترة يذكر كاتب شلبي أن عدد الجوامع في بلغراد كان حوالي مئة، ويذكر منها اسم اثنين فقط. وبعد هذا لدينا وصف الرحالة كيكله Kikle الذي زار بلغراد سنة (١٦٥٨)، حيث أشار إلى «الجوامع البديعة» في المدينة دون أن يذكر شيئاً عن عددها في بلغراد. ومن بين الرحالة يتميز هـ . أوتندورف H . Otendorf الذي زار بلغراد عدة مرات علىٰ اعتباره عضو الوفد النمساوي للمفاوضات مع العثمانيين. واستناداً إلى ما كتبه هذا الرحالة سنة (١٦٦٣) فقد كان في بلغراد ستة وخمسون جامعاً كبيراً وحوالي عشرين مسجداً صغيراً.

وعن هذه الفترة يقدم لنا كتاب الرحالة العثماني أوليا شلبي، الذي زار بلغراد سنة (١٦٦٠)، أهم مصدر عن الجوامع والمساجد في بلغراد. فقد تجول شلبي في بلغراد وزار الكثير من الجوامع والمساجد فيها ونقل وصفاً دقيقاً لما عليها من كتابات تسجل تاريخ بنائها وعن أحوالها كما كانت له صلاته بالعاملين في الإدارة العثمانية في بلغراد، الذين يُفترض أنْ يكونوا علىٰ اطلاع دقيق علىٰ ما في المدينة من جوامع ومساجد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المقاطع التي تتعلق ببلغراد من كتاب الرحالة شلبي قد ترجمت عدة مرات إلى اللغة الصربوكراوتية من قبل باحثين مختلفين. وما يثير هنا أنه لا يوجد اتفاق بين المترجمين حول عدد الجوامع والمساجد التي ذكرها شلبي في

وصفه لمدينة بلغراد. فالمترجم غ . إليزوفيتش G . Elezovié يذكر في ترجمته أن عدد الجوامع (٢١٧)، أما المترجم تشوهـاجتيش Ĉohadžié فيخفض الرقم إلى (٢١٠)، بينما يرفع صاحب الترجمة الثالثة والأخيرة هـ . شعبانوفيتش H . Ŝabanovié هذا الرقم إلى (٢٧٠)! وللأسف ليس بين يدينا الآن النص الأصلي لكتاب شلبي، ولذلك ذكرنا هذه الأرقام كما وردت في الطبعات اليوغسلافية لهذا الكتاب. وتجدر الإشارة هنا إلى أن شلبي ذكر أسماء (٣٥) جامعاً تقام بها الصلاة الجامعة كما ذكر أسماء ثلاثة جوامع في القسم المنخفض من القلعة بالإضافة إلى أسماء (١٢) مسجداً، أي أنه ذكر أسماء خمسين جامعاً ومسجداً.

وفي الواقع لقد شكّك بعض الباحثين في هذا الرقم الذي ذكره شلبي، على اعتبار أن بلغراد لا تحتمل هذا العدد من الجوامع والمساجد في ذلك الوقت. وما يثير هنا أن الباحث المعروف حازم شعبانوفيتش نفسه قد ذكر في هامش ترجمته لكتاب شلبي أن الرقم الذي يسوقه شلبي (٢٧٠ جامعاً) مبالغ فيه كثيراً على أساس أن بلغراد في ذلك الوقت كانت تحتوي على الأكثر علىٰ ٧٠ ـ ٨٠ جامعاً، دون أن يذكر أي مصدر لدعم ما ذهب إليه. وعلىٰ النقيض منه يدافع باحث غير مسلم هو الأستاذ ل. نيكيتش Lj. Nikié، عن العدد الذي ذكره شلبي في ترجمة أخرىٰ (٢١٧ جامعاً ومسجداً). والواقع أن الأستاذ نيكيتش، في دراسته القيمة عن جوامع بلغراد، ينبّه إلىٰ مسألة هامة ألا وهي أن الرحالة الأوربيين كانوا يحصون عدد الجوامع ببساطة بواسطة إحصاء عدد المآذن، وبالتالي كانوا لا يميزون بين الجامع والمسجد على اعتبار أن المسجد ليس له مئذنة بالضرورة.

وفي الحقيقة إن أوليا شلبي كان واعياً للفرق بين الجامع والمسجد، ولذلك فقد استعمل تعبير «محراب» للدلالة علىٰ الجامع والمسجد معاً. ففي حديثه عن أماكن العبادة في بلغراد يقول شلبي: «في بلغراد ٢٧٠ محراباً. ومن هذه سنذكر وسنصف فقط تلك الجوامع التي تقام بها صلاة الجمعة». وبعد هذا التحديد ينتقل شلبي إلى ذكر اسماء (٣٥) جامعاً. وفي الواقع إن

هذا الفرق بين عدد الجوامع (حوالي أربعين) وعدد المساجد (حوالي مئتين) يبدو طبيعياً إذا ما قارناه بوضع المدن الإسلامية في الشرق. ففي باليرمو، عاصمة صقلية، كما يذكر ابن حوقل في القرن العاشر، كانت هناك مساجد عديدة في الشارع الواحد، وعندما سأل عن ذلك عرف أنهم يقيمون تلك المساجد ملاصقة أو متصلة ببيوتهم للمباهاة، وأنه ربما اتخذ الأخوان مسجدين متجاورين لكي يصلي كل منهم في مسجده الخاص. ولدينا حول هذا مثال أوضح في وصف ابن جبير لبغداد في القرن الثاني عشر. فالمساجد سواء في الجانب الشرقي (الرصافة) أو الغربي (الكرخ)، كما يقول ابن جبير، «لا يأخذها التقدير فضلاً عن الإحصاء» بينما كانت الجوامع التي تقام فيها صلاة الجمعة لا تزيد عن أحد عشر.

ومن هنا يبدو لنا أن الرقم الذي ذكره شلبي عن جوامع ومساجد بلغراد (٢١٧ أو ٢٧٠) ليس كبيراً لمدينة كبلغراد وصل عدد السكان فيها في ذلك الحين إلى مئة ألف نسمة. وحول هذه الجوامع والمساجد التي ذكرها شلبي يلاحظ أن معظمها تحمل اسماء من بنوها: جامع الحاج إبراهيم، جامع الحاج صادق، جامع الحاج نذير، إلخ، وبعضها كان يعرف باسم المكان الذي أقيمت فيه: جامع بيت بازار Bit Pazar، جامع العمارة، إلخ أو باسم حرفة معينة: جامع المدبغة، إلخ.

ـ الحمامات

يعتبر الجامع القاعدة الأساسية لكل مدينة إسلامية، إذ يتم فيه تأدية الركن الأساسي واليومي للإسلام. ولكن تأدية الصلاة تفترض الطهارة التي جعلها الإسلام من أركان الإيمان أيضاً، وهذا أدى بدوره إلى الاهتمام ببناء الحمامات في المدن الإسلامية. فبناء الحمام، كمنشأة حضارية، يتبع دائماً بناء الجامع في المدن الإسلامية، بحيث يمكن أصلاً تقدير الحمامات في أية مدينة إسلامية استناداً إلى عدد الجوامع فيها، إذ إن كل خمسة جوامع وسطياً تفترض وجود حمام واحد كما أشار إلى ذلك ميتز في كتابه «الحضارة

الإسلامية». ويؤكد هذا وضع بلغراد في السنوات الأولىٰ للحكم العثماني. فحوالي سنة (١٥٢٣) حين كان في بلغراد (٥٠٤) جوامع، بني أول حمام في بلغراد من قبل الصدر الأعظم بيري محمد باشا. وفيما بعد، في منتصف القرن السابع عشر، حين وصل عدد الجوامع كما ذكر شلبي إلى ٣٥ جامعاً كان عدد الحمامات قد ارتفع أيضاً إلى سبعة، أي بما ينسجم مع النسبة السابقة.

ويذكر لنا شلبي في وصفه لبلغراد أن حمامات المدينة كانت مغطاة بالرصاص ويسوق أسماء أشهر هذه الحمامات في ذلك الحين: الحمام الجديد، الحمام الأوسط، حمام السلطان سليمان، حمام تشكور والحمام في القسم المنخفض من القلعة. وبالإضافة إلى حمامات المسلمين كان لليهود أيضاً حمام خاص بهم. وإلى جانب هذه الحمامات العامة انتشرت في بلغراد الحمامات البيتية، التي لا تلزم صاحبها بالذهاب إلى الحمامات العامة. وحول هذا يذكر شلبي، استناداً إلىٰ ما نقله عن أعيان المدينة، أن عدد الحمامات البيتية وصل إلى سبعة آلاف حمام في بلغراد. بقي أن نشير هنا إلى أن هذا الارتباط الديني الحضاري بين الجامع والحمام يتضح في المصير المشترك الذي تعرضت له الجوامع والحمامات معاً خلال حرب الاسترداد، كما سنتعرض له فيما بعد.

ـ شبكة الأقنية

إن وجود الجامع والحمام في المدينة الإسلامية يفترض بدوره توفير المياه النظيفة، التي تصلح للوضوء في الجامع أو للاغتسال في الحمامات العامة أو البيتية. ومن هنا كان الاهتمام بالبحث عن مصادر للمياه في ضواحي المدينة وشق الأقنية الجوفية لإيصال المياه النظيفة إلى الجوامع والحمامات والبيوت في بلغراد، الأمر الذي جعلها تمتاز عن بقية المدن الأوربية بشبكة المياه العذبة آنذاك. وفي الواقع إن العثمانيين، كما يعترف المؤرخ المعاصر د. بوبوفيتش، كانوا خبراء في تمديد الأقنية، نظراً لأنهم كانوا يهتمون ككل المسلمين بتوفير المياه النظيفة لمدنهم.

- المشارب والسبل

كانت هذه المشارب والسبل من المنشآت التي نتجت عن مدّ شبكة الأقنية إلى داخل المدينة. وفي الواقع إن هذه المنشآت، التي كانت توفر الماء لعابري السبيل، كانت من مميزات المدينة الإسلامية. وهذه المنشآت كانت تقام في الطرقات وأمام الخانات والاستراحات طلباً للثواب، وكانت تُزَيَّنُ عادةً باللوحات الحجرية التي كانت تنقش عليها بعض الآيات القرآنية أو بعض الأبيات الشعرية التي تسجل أسماء من قاموا بإنشائها وتاريخ ذلك. وخلال زيارته إلى بلغراد في منتصف القرن السابع عشر أحصىٰ لنا أوليا شلبي ستةً وعشرين مشرباً، ومن أقدم هذه المشارب كان ذلك الذي بناه محمد باشا في القسم المرتفع للقلعة، حيث يصف لنا شلبي اللوحة التي تشير إلى سنة إنشائه (٩٨٤) هجرية = (١٥٥٤) ميلادية.

وإلى جانب هذه المشارب كانت بلغراد تغصّ بالسبل في منتصف القرن السابع عشر. فقد ذكر شلبي أن عدد السُّبل هذه في بلغراد وصل إلى (٦٠٠) سبيل، ومن أشهرها سبيل السوق الكبير، سبيل بيرم بك، إلخ.

- أبراج الساعات

إن وجود الجامع في المدينة الإسلامية يفترض أن يعرف المسلم الوقت بدقة ليتمكن من أداء الصلاة في وقتها المحدد. وقد اهتم العثمانيون في بناء أبراج الساعات Sat Kula في المدن التي كانت تحت حكمهم، وهذه كانت عبارة عن أبراج ضخمة وجميلة وفي قمة كل واحد منها ساعة كبيرة تعلن عن الوقت بدقات تسمع عبر المدينة وضواحيها. وفيما يتعلق ببلغراد فقد بني أول برج من هذا النوع سنة (١٥٣٧). وخلال زيارته لبلغراد يحدثنا أوليا شلبي عن برج الساعة الذي كان قائماً في القسم المرتفع من القلعة ويذكر أن صوت دقات الساعة من هذا البرج كانت تسمع من علىٰ بعد مسيرة يوم.

- المدارس

في المدينة الإسلامية الناشئة لدينا ارتباط وثيق بين الجامع والمدرسة.

ففي بلغراد، كما في بقية المدن الإسلامية في البلقان، كان إنشاء المدارس يصاحب دائماً بناء الجوامع. ففي هذه المدن بنيت الجوامع في وسط كانت تنتشر فيه المسيحية، ولذلك فإن دور الجامع هنا لم يكن يقتصر علىٰ فتح أبوابه للصلاة، بل إن دوره الأساسي كان في نشر الإسلام وتثبيته في النفوس وذلك بتوعية الذين أخذوا في اعتناق الإسلام من السكان المحليين. وفي هذه الظروف كان كل جامع يشتمل على الكُتّاب، وهو ما يوازي المدرسة الابتدائية في عصرنا، وكان الشيخ بدوره هو المعلم. وفي هذه الكتاتيب كان الشيخ يعلّم أطفال المسلمين اللغة العربية ليتمكنوا من قراءة القرآن الكريم باللغة التي أُنزل بها. وقد ذكر لنا أوليا شلبي أن عدد هذه الكتاتيب في بلغراد وصل إلى (٢٧٠) كُتَّاباً، أي ما يوازي عدد الجوامع والمساجد فيها في ذلك الوقت (١٦٦٠).

وبالإضافة إلى هذه الكتاتيب كانت هناك المدارس العامة العليا، التي أُنشئت لتوفير ما تحتاج إليه الجوامع من كوادر دينية. وفي بلغراد، كما في بقية المدن الإسلامية في البلقان، كانت المدرسة في بداية الأمر في الجامع أو ملاصقة له، ثم أخذت في الانفصال لتتحول إلى منشأة قائمة بذاتها مع استمرار ارتباطها بالجامع. ومن المعروف لدينا الآن أن أقدم مدرسة أُنشئت في بلغراد هي «مدرسة محمد باشا»، التي بنيت حوالي سنة (١٥٤٨) وكانت في إطار الجامع الذي بناه أيضاً محمد باشا. وفيما بعد اشتهرت في بلغراد «مدرسة بيرم بك»، الواقعة في «سوق بيرم بك»، التي بُنيت حوالي سنة (١٥٦٠)، وفي سنة (١٥٦٦) برزت مدرسة ثالثة باسم «مدرسة أرسلان بك». وقد استمر عدد هذه المدارس بالازدياد حتىٰ وصل في منتصف القرن السابع عشر، حين زار أوليا شلبي بلغراد، إلى ثمان مدارس.

وبالإضافة إلى هذه المدارس العامة العليا نشأت في بلغراد مدارس متخصّصة مع استقرار الثقافة الإسلامية في المدينة. ومن هذه المدارس المتخصصة كان لدينا «دور الحديث» التي كانت تختص بتدريس الحديث

النبوي. وقد وجد أوليا شلبي حين زيارته لبلغراد تسع مدارس من هذا النوع. وإلى جانب هذه كان لدينا أيضاً في بلغراد المدارس القرآنية، التي كانت تختص بتدريس بأنواع القراءات والتجويد.

ـ التكايا:

من المعروف أن العثمانيين كان لهم اهتمام كبير بالتصوف، ويبدو هذا بشكل واضح في انتشار الطرق الصوفية في البلقان نظراً لأن الإسلام قد انتشر هنا بواسطة العثمانيين. وفي بداية الأمر كان التصوف لا يتعارض مع الدِّين الرسمي، كما سيحدث لاحقاً، وبالتالي كانت التكية امتداداً للجامع وليست بديلة عنه، كما حصل لاحقاً مع تكايا بعض الطرق الصوفية كالبكتاشية مثلاً. فالصوفي كان يصلي كغيره في الجامع ويتابع في التكية ما يراه تعميقاً لإيمانه. وفيما يتعلق ببلغراد تشير المصادر إلى أن دراويش الطرق الصوفية قد جاؤوا إلى بلغراد مع الجنود العثمانيين واستقروا بها منذ السنوات الأولىٰ للحكم العثماني. وفي الواقع كان هذا من تقاليد الدراويش الذين كانوا يصاحبون الجيوش العثمانية في أوربا لنشر الإسلام في المناطق المفتوحة، وليس هناك من شك في أنهم قد قاموا بدور كبير في هذا الاتجاه.

ففي أول إحصاء عن بلغراد خلال الحكم العثماني (١٥٣٦) برزت أسماء بعض الدراويش المقيمين في بلغراد كالدرويش حمزة والدرويش حسين من الأناضول، والبابا روحي عاصم الخ. ومع تطور بلغراد وتضخم عدد السكان فيها انتشرت في هذه المدينة أبرز الطرق الصوفية وفروعها المعروفة في العالم الإسلامي (البكتاشية، الخلوتية، الرفاعية، القادرية، النقشبندية، السعدية، الشعبانية إلخ). وفيما يتعلق بالتكايا لا نملك في الواقع معطيات دقيقة عن أقدم التكايا التي أُنشئت في مدينة بلغراد. ومع هذا يمكن لنا أن نستنتج مما ذكره أوليا شلبي أن أقدم تكية في بلغراد هي تلك التي بناها الوزير محمد باشا يحيىٰ حوالي منتصف القرن السادس عشر، أي في بداية الحكم العثماني لبلغراد. وقد ارتفع عدد التكايا في مدينة بلغراد مع مرور الزمن إلى

أن وصل في منتصف القرن السابع عشر إلى سبع عشرة تكية، وذلك استناداً إلى ما ذكره أوليا شلبي في وصفه للمدينة.

ـ **الأسواق**:

يمثل الجامع في المدينة الإسلامية الناشئة كبلغراد، وخاصة في مرحلة توسعها الأولى، النواة التي تقوم حولها بقية المنشآت الحضارية التي ترتبط بشكل أو بآخر بهذه النواة الأساسية. فبناء الجامع كان يصاحب تشييد المحلة الإسلامية Mahala وترتبط بهذا بقية المنشآت التي تعرضنا لها، وهذا يؤدي بدوره إلى بروز السوق. ففور فتح بلغراد، حوالي (١٥٢٣)، قام الوزير فرهاد باشا ببناء مسجد ومحلة في المدينة، وخلال عقد من الزمن تقريباً قامت في بلغراد ثلاثة جوامع على الأقل، وثلاثة محلات إسلامية جديدة. ومع هذا التطور وقيام المنشآت الحضارية الأخرى، يبرز السوق في المدينة الإسلامية لتلبية حاجات السكان المسلمين، الذين أصبحت حاجاتهم تختلف مع تغيّر عاداتهم وتقاليدهم باعتناقهم للإسلام. وهذا الترابط بين المنشآت الحضارية والسوق يبدو في وقفية الوزير بيري محمد باشا، الذي بنى بين عامي (١٥٢١ ـ ١٥٢٣) حماماً واستراحة للقوافل، وخصّص للانفاق عليها دكاكين كثيرة وعدة مطاحن وصل إيرادها في ذلك الحين إلى سبعين ألف أقجة، مما يدل على النمو السريع للسوق خلال السنوات الأولى للحكم العثماني للمدينة. وفيما بعد، مع اتساع المدينة، ازداد عدد الأسواق التي كانت تثير إعجاب الرحالة الأوربيين بطابعها الشرقي المميز للمدن الإسلامية. فهذه الأسواق كانت مغطاةً اتقاءً للحر في الصيف، وللمطر والثلج في الشتاء، وبعضها كان متخصصاً ببضائع معينة أو لحرف معينة، بينما كان السوق الطويل مثلاً يجمع انتاج كل الحرف وتعرض فيه مختلف أنواع البضائع. وقد زار أوليا شلبي هذا السوق خلال زيارته لبلغراد وذكر أن طوله يبلغ ثلاثة آلاف خطوة، وبالتحديد كان يمتد من جامع كَبلوجي وحتى سوق السمك.

مخطط المدينة:

كانت بلغراد قبل الفتح العثماني يطغى عليها طابع القلعة بينما كان

طابع المدينة باهتاً. فخلال القرن الخامس عشر كانت شهرة بلغراد تنبع من كونها قلعة مجرية لصدّ العثمانيين عن التغلغل إلى المجر. وفي ذلك القرن كانت بلغراد عبارة عن قلعة ضخمة تقوم على رابية تشرف على مصبّ نهر السافا في الدانوب. وهذه القلعة كانت تقسم بدورها إلى قسمين، القسم المرتفع والقسم المنخفض، وكل قسم كان يحتوي على بعض الأحياء السكنية. وإلى جانب هذا، خارج سور القلعة في اتجاه الدانوب، كانت تقوم الضاحية التي تتألف بدورها من عدة أحياء سكنية. وبعد الفتح العثماني لقلعة بلغراد سنة (١٥٢١) أخذت هذه الضاحية تتسع بسرعة حتىٰ إنها تحولت بعد قرن من الزمن إلى مدينة كبيرة، بل إنها أصبحت من أكبر المدن في أوربا الشرقية خلال القرن السابع عشر. وفي ذلك الوقت، حين كانت بلغراد في قمة ازدهارها، زارها الرحالة أوليا شلبي وترك لها وصفاً شاملاً يمكن أن يعتمد عليه المرء في التعريف بمخطط المدينة.

وبقيت القلعة كما هي تقريباً في هذا العهد، ولكن مع بعض التعديلات التي نشأت مع تطورات الوضع. كان القسم المرتفع من هذه القلعة كما يصفه شلبي «عظيم التحصين ويستحيل فتحه ولا يوجد في أي جانب منه نقطة ضعف يمكن منها السيطرة عليه». كان لهذا القسم أربعة أبواب، وفي الجهة الشرقية كان باب الساعة الذي يتم منه الهبوط إلى المدينة، وفي هذا المكان أقيم برج الساعة التي كان يُسمع صوت دقّاتها على بعد مسيرة يوم. وفي بداية العهد العثماني كان هذا القسم بطابع إداري ـ عسكري فقط، دون وجود أي حي للسكن فيه، وذلك حتىٰ منتصف القرن السادس عشر. في ذلك الحين بني في هذا القسم جامع السلطان ونشأت حوله محلة قبل (١٥٦٠) حملت اسم الجامع «محلة جامع السلطان». وفي (١٥٦٠) كان عدد البيوت في هذه المحلة اثنان وعشرون بيتاً، وحين زار أوليا شلبي بلغراد كان في هذا القسم مئتي بيت. أما القسم المنخفض من القلعة فقد كان يحتوي على أربعمئة بيت بطابق أو أكثر، وخمسة جوامع، وحمام، وورشة

لصنع الأسلحة، وداراً لسك النقود.

وخارج القلعة كانت المدينة التي أصبحت تحيط بالقلعة، دون أن تتصل بها، من ضفة الدانوب إلى ضفة السافا. ويذكر أوليا شلبي أن عدد المحلات في المدينة ثمان وثلاثون محلة، ويسجّل أسماءها نقلاً عن سجل المحكمة الشرعية في بلغراد، وكان في هذه المحلات (١٧) ألف بيت وفي كل بيت وسطياً (٥ ـ ١٠) أشخاص. وكانت هذه المحلات تُسمىٰ باسم سبيل فيها (محلة سبيل تشوكور)، أو ببعض المنشآت (محلة العمارة، محلة المحكمة، محلة الخان الجديـد) أو باسم الجامع فيها (محلة جامع صالح آغا، محلة جامع الحاج خليل) أو باسم السوق فيها (محلة بيت بازار Bit Pazar، محلة آت بازار At Pazar أو باسم الأشخاص الذين بنوها (محلة زين الدِّين آغا، محلة عبد الجبار). وكما في المدن الإسلامية في الشرق كانت محلات بلغراد تتميز أيضاً باللون الاتني أو الديني. فقد كان للغجر ثلاث محلات خاصة بهم علىٰ ضفة السافا، بينما كان على ضفة الدانوب ثلاث محلات لليونانيين، وثلاث محلات للصربيين والبلغاريين. وإلى جانب هؤلاء كانت هناك محلة خاصة باليهود، ومحلة خاصة أخرىٰ بالأرمن. وبالمقارنة مع القسم السافي، الذي يمتد تجاه السافا، كان القسم الدانوبي مركزاً للاقتصاد إذ كان يضم شوارع التجار والحرفيين، وكانت الشوارع هنا تغصّ بآلاف الدكاكين. وكما يذكر أوليا شلبي كانت كل الشوارع، سواء التي تخترق المحلات، أو تلك التي تخترق الأسواق، مرصوفة بالحجارة.

السكان:

بعد حصار بلغراد الذي استمر أكثر من شهر، واستسلام القـوات المجرية في نهاية الأمر، حدثت تغيرات جذرية فيما يتعلق بسكان بلغراد. فقد طلب المجريون من عسكريين ومدنيين ـ وهم الذين كانوا يشكلون غالبية السكان ـ من السلطان سليمان أن يسمح لهم بالذهاب إلى المجر بعد أن عفا عنهم. وقد استجاب السلطان حينذاك لرغبتهم وغادروا بالفعل بلغراد فوراً.

ومن ناحية أخرىٰ أمر السلطان بنقل الصرب الذين وجدوا في القلعة مع أمتعتهم وثرواتهم لتوطينهم في استنبول وضواحيها. وعلى كل حال كان هذا الموقف لا يهدف إلى تطهير بلغراد من المسيحيين، لأن الحكم العثماني أبقىٰ على الكثير من المسيحيين ودعا فيما بعد بعض المسيحيين للعمل في بلغراد، كما أن التسامح الذي تميز به شجع المسيحيين من مختلف الطوائف والأمصار على الهجرة إلى بلغراد للعمل والإقامة فيها.

ويؤكد هذا أول إحصاء للسكان في المدينة، خارج القلعة، وهو يعود إلى سنوات (١٥٢٨ ـ ١٥٣٠). فحسب هذا الإحصاء كان في المدينة (٦٤) بيتاً للمسيحيين موزعين على (١٤) محلة. ومع أن هذا الإحصاء لا يشير إلى المسلمين، إلا أن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن المدينة كانت خالية من المسلمين في ذلك الوقت. فمن المعروف أنه في تلك الفترة (١٥٢٣ ـ ١٥٢٤) قام الوزير فرهاد باشا ببناء مسجد مع محلة حوله في المدينة. وفي الإحصاء الثاني للمدينة، الذي جرىٰ سنة ١٥٣٦، نجد في المدينة (١٣٩) بيتاً للمسيحيين موزعة علىٰ (١٥) محلة و (٧٩) بيتاً للمسلمين في أربعة محلات خاصة بهم. وفي هذه السنة لدينا أول معطيات ثابتة حول قدوم الصرب من المناطق الداخلية للعمل والإقامة في بلغراد، في حراسة وحماية عنابر المؤونة في المدينة. ولإقامة هؤلاء في المدينة بنيت ثلاث محلات جديدة تتألف الأولىٰ من (٢٥) بيتاً والثانية من (٢٣) بيتاً والثالث من (٢٥) بيتاً وكانت تتميز هذه بوجود مسلم واحد فيها ويبدو من اسمه (حمزة بن عبد الله) أنه ممن اعتنقوا الإسلام في ذلك الوقت. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هؤلاء المسيحيين كانوا معفيين من كل الضرائب الاستثنائية والالتزامات المختلفة، كالمسلمين في المدينة، وذلك لطبيعة عملهم.

ومن ناحية أخرى، فإن إحصاء (١٥٣٦) يكشف لنا بوضوح عن بروز عنصر جديد بين سكان بلغراد، وهم الغجر، الذين لم يكونوا سابقاً في بلغراد. فحسب هذا الإحصاء نجد للغجر مرَّةً واحدةً تسعة وعشرين بيتاً. وفي بداية النصف الثاني للقرن السادس عشر تغيّر تركيب السكان بصورة أوضح في

بلغراد، كما يبدو في الإحصاء الذي جرىٰ سنة (١٥٦٠) ففي هذا الإحصاء نجد أن عدد بيوت المسلمين ارتفع إلى (٣٨٥) بيتاً موزعة على (١٦) محلة، بينما انخفض عدد بيوت المسيحيين إلى (٩٣) بيتاً في (١١) محلة. وربما يعود هذا أيضاً إلى اعتناق بعض المسيحيين للإسلام في هذه الفترة. وحسب هذا الإحصاء أصبح للغجر محلتان تحتويان على (٥٥) بيتاً. والجديد في هذا الإحصاء أن اليهود برزوا لأول مرة بين سكان بلغراد. فقد كشف هذا الإحصاء عن وجود سبعة يهود في المدينة. أما في إحصاء (١٥٧٢) فنجد عشرين بيتاً لليهود و (١٩٢) بيتاً للغجر. ويبدو من هذه المعطيات أن بلغراد كانت منذ بداية الحكم العثماني مدينة مفتوحة لكل الأديان، وسيتضح هذا أكثر في القرون اللاحقة.

ويبدو أن الطاعون الذي أصاب بلغراد عدة مرات خلال النصف الثاني للقرن السادس عشر، وخاصة سنة (١٥٧٩) حدّ من نمو عدد السكان فيها خلال تلك الفترة. وفيما بعد، ومع بداية القرن السابع عشر، ازداد عدد السكان في بلغراد بشكل مثير حتىٰ وصل عددهم في منتصف القرن السابع عشر إلى حوالي مئة ألف، مما جعل بلغراد من أكبر المدن في أوربا الشرقية. وفيما لو أخذنا بعين الاعتبار روح ذلك العصر، حين كان سكان المدينة يقسّمون بشكل عام على أساس الدِّين الذي ينتمون إليه، لوجدنا أن تركيب السكان في بلغراد كان يقوم أساساً علىٰ ثلاث جماعات مع الأخذ بعين الاعتبارات التمايزات الاتنية ـ الطائفية داخل كل جماعة.

ـ المسلمون:

كان المسلمون يشكلون غالبية السكان في بلغراد. وقد رأينا سابقاً في إحصاء (١٥٣٦) أن المسيحيين كانوا يشكلون غالبية السكان في المدينة خارج القلعة (١٣٩ بيتاً للمسيحيين مقابل ٧٩ بيتاً للمسلمين)، بينما انقلب الوضع في إحصاء (١٥٦٠) حيث أصبح المسلمون يؤلفون غالبية السكان (٣٨٥ بيتاً للمسلمين مقابل ٩٣ بيتاً للمسيحيين). وإذا أخذنا بعين الاعتبار الطاعون الذي أصاب بلغراد عدة مرات خلال النصف الثاني للقرن السادس

عشر، والذي حدّ بالتأكيد من نمو عدد السكان، نجد أن عدد السكان قد قفز مرة واحدة خلال القرن السابع عشر إلى حوالي مئة ألف. وهذا يعني بطبيعة الحال أن بلغراد شدّت إليها عشرات الألوف خلال فترة قصيرة، وقد جاء هؤلاء إلىٰ بلغراد من مختلف أنحاء البلقان والعالم.

كان المسلمون، الذين كانوا يؤلفون غالبية السكان، من مناطق مختلفة. ومن هؤلاء كان الأتراك لا يشكلون إلا أقلية وهؤلاء كانوا يتميزون عن بقية المسلمين من النواحي المختلفة. وفي مقابل هؤلاء كان السلاف الجنوبيون من البوسنة هم الأكثر عدداً بين المسلمين ويأتي بعدهم من حيث العدد الألبانيون. وإلىٰ جانب هؤلاء نجد بين مسلمي بلغراد بعض العرب والشركس والمغاربة من شمال إفريقية. ومن هذا يتضح أن أغلبية المسلمين في بلغراد كانوا من البلقان، من البوسنويين والألبانيين، الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح العثماني لألبانيا والبوسنة. ومع أن هؤلاء قد اعتنقوا الإسلام بتأثير العثمانيين وعاشوا تحت الحكم العثماني إلا أنهم حافظوا علىٰ لغتهم وتقاليدهم مما جعلهم متميزين عن الأقلية التركية في بلغراد. ومع هذا فقد درجت العادة علىٰ وصف كل المسلمين في بلغراد بـ «الأتراك»، مع أن غالبية المسلمين (البوسنويون والألبانيون) لم يكن يربطهم بالأتراك إلا الدِّين المشترك. وفي الواقع لقد أسيء كثيراً استخدام هذا التعبير (الأتراك) خلال ما يسمى بحرب الاسترداد وذلك لتبرير القضاء علىٰ هؤلاء أو ترحيلهم من بلغراد بأي ثمن وذلك بحجة «تحرير» بلغراد من «الحكم التركي» ومن «الأتراك» في آنٍ معاً.

ـ المسيحيون:

كان المسيحيون يشكلون كتلة واحدة متماسكة أمام المسلمين إذ أنهم كانوا من أتباع الكنيسة الأرذوكسية. وقد رأينا في البداية أنهم أصبحوا أقلية في بلغراد منذ (١٥٦٠)، ومنذ بداية الحكم العثماني تحولت بلغراد إلى مركز جذب للمسيحيين من مختلف الأنحاء ومن مختلف القوميات. فحوالي

(١٥٣٦) جاء للإقامة في بلغراد حوالي (٧٥) عائلة صربية من المناطق الداخلية وأقام هؤلاء ثلاث محلات صغيرة. وفيما بعد برز في بلغراد مسيحيون من قوميات مختلفة كاليونانيين والسينسار Cinsar(١) والبغار والأرمن، الذين لعبوا دوراً كبيراً في اقتصاد المدينة. وقد بقي عدد المسيحيين في ازدياد إلى منتصف القرن السابع عشر، حين زار بلغراد الرحالة أوليا شلبي. ويذكر لنا هذا الرحالة أن أمين الخراج في بلغراد أفاده أن في المدينة واحداً وعشرين ألفاً ممن يدفعون الجزية، بينما كان سكان بلغراد في ذلك الحين ثمانية وتسعون ألفاً. ويفيدنا شلبي أن هؤلاء المسيحيين كانت لهم محلاتهم الخاصة، فقد كانت هناك ثلاث محلات للروم (اليونانيين) وثلاث محلات للصرب والبغاريين ومحلة واحدة للأرمن، بينما وصل عدد كنائسهم في ذلك الحين إلى ثمان.

وفي الواقع كان هؤلاء المسيحيون منصهرين في البوتقة الأرثوذكسية، تحت تأثير الكنيسة اليونانية ولغتها وثقافتها، حتى إن شلبي وغيره لا يميزون السينسار والألبانيين الأرذوذكس عن اليونانيين. ويمكن هنا أن نستثني الأرمن، الذين كانوا متميزين عن بقية المسيحيين بلغتهم وثقافتهم وكنيستهم، مع أنهم كانوا أقرب إلى الأرثوذوكس. ومع ذلك، إذا نظرنا إلى القضية بشكل عام، كان المسيحيون يشكلون كتلة متماسكة يسيطر عليها الشعور الأرثوذكسي، ولذلك من الصعب فرز هذه الكتلة لمعرفة حجم كل قومية بين هؤلاء المسيحيين. ومع هذا كان الحجم الأبرز لـ «اليونانيين».بفضل تأثير وسيطرة الكنيسة اليونانية، التي كانت تقوم بامتصاص الأرثوذوكس من بقية القوميات لتجعلهم يونانيين في نهاية الأمر.

ـ اليهود:

كانت حرب الاسترداد في إسبانيا قد انتهت في أواخر القرن الخامس عشر

(١) السينسار من المجموعات الاتنية القديمة في البلقان، التي لا يتفق العلماء حول أصلها. وقد انتشر أفرادها في المناطق الحالية ليوغسلافيا، وألبانيا، واليونان، وبلغاريا، ورومانيا، حيث انصهرت أغلبيتهم في شعوب هذه المناطق خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بشكل خاص.

وبداية القرن السادس عشر إلى طرد جماعي للمسلمين واليهود من إسبانيا. وقد جاء قسم كبير من هؤلاء اليهود إلى الامبراطورية العثمانية، وخاصة إلى استنبول وسالونيك، ويبدو أن بعضهم تابع طريقه من سالونيك إلى بلغراد بعد الفتح العثماني لها. ويذكر المؤرخ اليوغسلافي د. بوبوفيتش أن هؤلاء اليهود كانوا ملاحقين ومضطهدين في البلاد الكاثوليكية ولم يلاقوا الترحيب إلا في بلغراد، نظراً لتسامح الحكم العثماني إزاء الأديان الأخرىٰ. وفي الواقع لدينا اختلاف كبير حول عدد اليهود في بلغراد. فاحصاء ١٥٦٠ يشير إلى أن اليهود كان لهم سبعة بيوت، وفيما ارتفع هذا الرقم إلى عشرين بيتاً حسب إحصاء ١٥٧٢، بينما ذهب د. بوبوفينش إلى أن اليهود كان لهم ثلاثة معابد سنة ٧١٥٦٧

الحياة الاجتماعية:

في وصفه لبلغراد سنة (١٦٦٠) يقسم أوليا شلبي سكان بلغراد إلى ستة طوائف استناداً إلى الأعمال التي كانوا يمارسونها: العسكريون، التجار، العاملون في الإدارة، المزارعون، البحارة والحرفيون. وباستثناء العسكريين، الذين كانوا جميعاً من المسلمين، كانت بقية الطوائف لا تعرف التمايز الديني. وبشكل عام كان سكان بلغراد من مسلمين ومسيحيين قد استفادوا من الازدهار الاقتصادي والتجاري في المدينة. فقد كان المسلمون هم أصحاب غالبية البيوت، وهذا أدىٰ بقسم منهم إلى الاعتماد على ريع أملاكه العقارية، كما كان هناك قسم يعيش من ريع الأراضي التي يملكها في ضواحي المدينة. وإلى جانب هذا كان للتجار المسلمين حضورهم البارز في السوق. وفي الجانب المسيحي اشتهر اليونانيون بممارسة التجارة وامتاز الأرمن بالعمل في التجارة والحرف واهتم اليهود كعادتهم في الصيرفة. وفي الواقع لقد أدىٰ ازدهار التجارة والحرف إلى صعود بارز للتجار، من مسلمين ومسيحيين، الذين أصبحوا يتمتعون بثروات كبيرة. وقد انعكس هذا الثراء في تشييد البيوت الكبيرة والجميلة، التي كانت تتميز بطابعها الشرقي. وحول هذا يذكر أولياء شلبي أن بلغراد كانت تحتوي خلال زيارته لها على (١٦٠) بلاطاً.

وفي هذا الإطار كان للأصناف دورها وتقاليدها الاجتماعية الخاصة، إذ أن كل صنف كان وحدة اجتماعية متماسكة وكانت الأصناف تؤلف مجتمعاً متميزاً داخل مجتمع المدينة. في البداية كان من حق كل حرفي أن ينتمي إلى الصنف بغض النظر عن دينه وطائفته. ولكن مع مرور الوقت أخذت بعض الحرف تتمركز لدى بعض الطوائف. فأصناف الحلاقين، والجزماتية، والطبّاقين، كانت محصورة مثلاً في أيدي المسلمين، بينما كان صنف الصاغاتية والخياطين مثلاً مؤلفاً من المسلمين والمسيحيين. وكان كل صنف يشكل وحدة اجتماعية متماسكة. فقد كان لكل صنف مجلسه المنتخب، الذي ينتخب بدوره شيخ الصنف، وهو الذي كان يمثل مصالح أعضاء الصنف أمام السلطة. وكان شيخ الصنف، الذي كان بدوره يعمل كأي معلم آخر، له الرأي الحاسم في امتحان وتقرير ترقية الأجير إلى مرتبة معلم. وكانت هذه من المناسبات الاجتماعية المهمة للصنف، إذ يشارك فيه كل أعضاء الصنف حيث يتم الاحتفال بمراسيم الشد للعضو الجديد الذي يقيم في النهاية وليمة للجميع. ومما يجدر يذكره أنه كان لكل صنف صندوقه المالي، ومن خلال هذا الصندوق كانت تتم مساعدة الفقراء والمحتاجين من أعضاء الصنف. وقد كان لكل صنف رايته الخاصة التي يسير وراءها أعضاء الصنف في الاحتفالات الدينية والاجتماعية. وتجدر الإشارة إلى أن أعضاء الصنف، الأجراء والمعلمون والشيخ، كانوا يخرجون بشكل جماعي إلى المتنزهات في ضواحي المدينة، حيث يقضون يومهم في جو من التسلية ويعودون بعد الغداء الذي يشارك الجميع بدفع نفقاته.

في ذلك الوقت كان الزي الشرقي الإسلامي هو السائد في المدينة وأصبح المسيحيون يلبسون كالمسلمين، ولكن مع بعض التفاصيل التي تميزهم. فاليهود مثلاً كانوا يلبسون الزي الشرقي الإسلامي، ولكن كانوا يضعون على رؤوسهم قلنسوة صفراء لتميزهم عن غيرهم. وأصبح المسيحيون أيضاً يعتمدون كالمسلمين على الأطلس والقطيفة والبروكار والدامسك التي كانت تأتي من البلاد العربية. وقد ساد أيضاً في بلغراد، في

وسط المسيحيين، الذوق الإسلامي فيما يتعلق بالألوان. فقد كانت الألوان الرائجة هي الأحمر والليلكي والأزرق، بينما كان الأسود نادراً، واللون الأصفر غائباً تماماً.

ومن جهة أخرىٰ كان للذوق الشرقي الإسلامي تأثيره الكبير فيما يتعلق بالطعام والحلويات. فالرحالة الانكليزي براون أشاد كثيراً بالخبز في بلغراد حتى وصفه بأنه ألذُّ خبز في أوربا. وقد انتشرت في بلغراد، كما في أية مدينة شرقية، أصناف الطعام التي لم تكن معروفة في المدن الأوربية المجاورة. ومع هذا كانت بلغراد تتميز بعدم وجود لحم الخنزير فيها، إذ لم يكن يسمح للمسيحيين بجلب الخنازير إلى المدينة أو بعرض لحم الخنزير للبيع. وخلال زيارته لبلغراد أشاد أوليا شلبي بالبقلاوة البلغرادية، التي اعترف بأنه لم يأكل مثلها لا في البلاد العربية ولا في بلاد فارس. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بلغراد، كمدينة إسلامية، تميزت بوجود ما يسمىٰ «العمارة» Imaret، التي هي عبارة عن مطعم شعبي ومجاني تابع للأوقاف. ففي هذه العمارة كان يمكن لأي إنسان أن يدخل ويأكل وجبة كاملة دون أن يدفع قرشاً واحداً. وقد بنيت أول «عمارة» من هذا النوع في بلغراد في السنوات الأولىٰ للحكم العثماني (حوالي ١٥٢٣) واشتهرت باسم محمد باشا الذي بناها وأوقف لها بعض أملاكه لتمويل نفقاتها. وقد بقيت هذه العمارة تقدم الطعام مجاناً للناس على مر السنين حتىٰ زيارة أوليا شلبي لبلغراد سنة (١٦٦٠). والواقع كانت هناك في بلغراد «عمارة» أخرىٰ، هي عمارة بيرم بك، إلا أنها كانت مغلقة في تلك السنة خلال زيارة شلبي للمدينة.

وعلىٰ الرغم من ازدهار المدينة الذي وصل إلىٰ قمته في النصف الثاني للقرن السابع عشر، فقد بقيت المقاهي هي المكان الأساسي الذي يرتاده السكان للترويح عن النفس بشرب القهوة والتحدث مع الأصدقاء المعارف. ومن المؤكد أن عدد المقاهي في بلغراد كان كبيراً، وتجدر الإشارة هنا أن بعض المقاهي كانت تتميز بطابعها القومي. فقد كان لليونانيين أكثر من

مقهىٰ، كما كان للأرمن مقهى خاص بهم. وإلى جانب هذا كان للمسيحيين حاناتهم أيضاً. وفي هذه الظروف كان للحمام دوره الاجتماعي أيضـاً، فالذهاب إلى الحمام كان متعة في حد ذاته إذ يقضي المرء فيه ساعات طويلة يتمتع فيه بالمياه، والبخار، والتدليك، وفي الاستراحة والحديث مع الأصدقاء في البرّاني. وقد وصل عدد الحمامات العامة في بلغراد في بداية النصف الثاني للقرن السابع عشر إلى سبعة، وكان أشهرها الحمام الجديد، والحمام الأوسط، وحمام السلطان سليمان الـخ. ولدينـا ما يشيـر إلى أن بعض المجموعات اللاتينية كانت لها حماماتها الخاصة، فقد كان للأرمن حمام خاص بهم، وكذلك لليهود.

وبالإضافة إلى هذا كان الناس ينشـدون المتعة في الـذهاب إلى المنتزهات المحيطة ببلغراد. وقد ذكر لنا شلبي أهم هذه المتنزهات. التي كان يقصدها سكان بلغراد للتسلية والترويح عن النفس مثل التكية البكتاشية، وكَرْمُ يوسف آغا، وكَرْمُ الحاج علي، إلخ.

ومن المنشآت الاجتماعية المثيرة في المدينة كانت «دور العُزّاب»، وهي دور كبيرة مخصصة للشباب الحرفيين الذين كانوا يعيشون حياة العُزُوبية بانتظار الزواج والانتقال إلى بيوت خاصة بهم. وقد ذكر أوليا شلبي في وصفه لبلغراد أن عدد هذه الدُّور كان سبعة، وكانت الإقامة فيها مجانية للعُزّاب. وهذا النوع من المنشآت الاجتماعية كانت له أهميته بـالنسبة للحـرفيين العزاب، الذين كانوا يستفيدون من إقامتهم المجانية لتوفير نفقات الزواج والانتقال إلى بيت خاص.

كان المسلمون في بلغراد متمسكين بالدِّين، كما يصفهم أوليا شلبي الذي اختلط معهم خلال إقامته في المدينة، وكانوا كلهم يتبعون المذهب الحنفي. وقد أشاد شلبي بنساء المسلمين في المدينة ووصفهن بأنهن كن متدينات وعفيفات «مثل رابعة العدوية». وقد كان لهذا التمسك بالدِّين أثره على الفصل بين الرجل والمرأة في المجتمع، حتىٰ إن الفتيات، كما يذكر

شلبي، كن لا يرين وجه رجل ولا يسمعن صوت أحد باستثناء والدهن. ولكن، من ناحية أخرىٰ، كان لهذا التمسك بالدِّين امتداده الاجتماعي أيضاً. فشهر رمضان كان يتحول إلى كرنفال اجتماعي مثير للغاية، وكان الناس يحتفلون به بحماس كل يوم. وقد جرت العادة أن تقوم القلعة باطلاق مدفع رمضان، الذي كان ينبه الناس إلى بداية هذا الشهر. وفي أثناء النهار كان الصوم يدفع الناس إلى الهدوء والراحة، بينما كانت المدينة تموج بالحركة مع اقتراب الإفطار. وكان الإفطار يتحول إلى احتفال، حيث كان يصاحبه دعوة الأقارب والمعارف إلى موائد الإفطار. وبعد الإفطار كانت شوارع المدينة تتحول إلى مسرح للاحتفالات. وقد نقل لنا الرحالة كيكله، الذي صادفت زيارته لبلغراد خلال شهر رمضان، مشهد هذه الاحتفالات الليلية التي كانت تتم في شوارع المدينة وأطلق عليها وصف «الكرنفالات التركيـة» إذ أن المسلمين كانوا يحتفلون بوضع الأقنعة المثيرة علىٰ وجوههم و «يسيرون ليلاً بالأقنعة كما لدينا في الكرنفال». وقد شاهد هذا أيضاً الرحالة براند شتتر، ووصف لنا كيف أن المسلمين «في كل ليلة تقريباً كانوا يأتون بالأقنعة المختلفة، الكبيرة والصغيرة، ويلعبون ويتسلون مع المهرجين».

في نهاية هذا الشهر كان عيد الفطر بطبيعة الحال، وكان هذا يضفي على المدينة جواً اجتماعياً متميزاً. فالعيد كان يبدأ بالتوجه باكراً إلى مصلىٰ المدينة. و «المصلىٰ» كان مكاناً فسيحاً ومسوراً في العراء لأداء صلاة العيد بشكل جماعي في الهواء الطلق. والعيد كان موسم الزيارات، والحرص علىٰ الزيارة، وردّ الزيارة كان تقليداً اجتماعياً سائداً لدىٰ الجميع. أما العيد الأخر، عيد الأضحىٰ، فكان يرتبط طبعاً بمناسبة الحج. وعلىٰ الرغم من أن بلغراد كانت تقع في أقصىٰ حدود الامبراطورية العثمانية، فقد كان المسلمون لا يتخلفون عن تأدية فريضة الحج، لما كان للقب «الحـاج» من هيبة اجتماعية أيضاً. وفي الواقع كان الذهاب إلى الديار المقدسة لتأدية فريضة الحج في تلك الأيام مغامرة صعبة، نظراً لطول الطريق وصعوبته، حتّىٰ إن المسلم كان يقضي سنة تقريباً في رحلته إلى مكة والمدينة والعودة إلى

بلغراد. ومن هنا كانت عودة الحاج في حد ذاتها حدث، وبعد وصوله كان الناس يتوافدون لزيارته وتهنئته بتأدية فريضة الحج والعودة بسلامة. وهذه الزيارات كانت مناسبة مهمة لأن الزوار كانوا يستمتعون بما يرويه الحاج عما شاهده وصادفه في طريقه الطويل الشاق، وبالتالي كانت روايات الحجاج مصدراً للمعلومات عن المناطق وسكان البلاد التي يزورها الحجاج في طريقهم إلى مكة والمدينة. وفي الواقع كانت رحلة الحج من بلغراد تذهب في اتجاهين، عبر استنبول ودمشق، أو عبر سالونيك والاسكندرية، عن طريق البحر.

ومن أهم المناسبات الاجتماعية الأخرىٰ في حياة المسلمين كان المولد النبوي. فالاحتفال بالمولد النبوي كان يطغىٰ عليه الطابع الاجتماعي، وكان يقام في أيام ومناسبات مختلفة (الاحتفال بتشييد بيت، الوفاء بنذر، الشفاء من مرض إلخ)، أي أنه كان لا يقتصر على ذكرىٰ ولادة الرسول محمد ﷺ فقط. وفي هذه المناسبة كان صاحب البيت يدعو من يستطيع دعوته من الأصدقاء والمعارف، ويقوم الشيخ وحده، أو مع مساعد له، بإنشاد «منظومة المولد»، وتنتهي هذه المناسبة بعشاء يتماشىٰ مع منزلة صاحب الدعوة. وهكذا كان الاحتفال بالمولد أيضاً يتحول إلىٰ مناسبة اجتماعية، يلتقي فيها الناس ويتبادلون الأحاديث المختلفة. وإلى جانب هذا اهتم المسلمون كثيراً بالسُّنَّة التي تقضي بختن الأولاد وكانت هذه المناسبة، التي تُدعىٰ هنا «السُّنَّة» Sunet، تتحول إلى احتفال اجتماعي يستمر عدة أيام أحياناً. وغالباً ما كان صاحب البيت ينتظر نمو أولاده لكي يحتفل بختن ولدين أو ثلاثة مرة واحدة، وكان يدعو للاحتفال بهذه المناسبة ما تتيح له ظروفه من العشرات إلى مئات الأشخاص. وفي الواقع فقد كان يتحول هذا الاحتفال، الذي كان يتخلّله الطعام والشراب، إلى واحدة من المناسبات الاجتماعية المهمة التي كانت تجمع بين المسلمين من حين إلى آخر.

وبالإضافة إلى هذا كانت هناك بعض الاحتفالات الاجتماعية الأخرى،

التي كـانت تثير الحمـاس والسرور في صفـوف المسلمين، كالاحتفـال بالانتصارات التي كانت تحرزها الجيوش العثمانية في البلاد المسيحية، أو الاحتفال باعتناق المسيحيين للإسلام. ومن هذا تذكر المصادر الاحتفال الذي عمَّ بلغراد سنة (١٦٠٨) حين وصلت إلى المدينة الأخبار التي تفيد باعتناق المسيحيين في مدينة أرديل Erdilj للإسلام.

* * *

الفصل الثالث

بلغراد مركز الثقافة الإسلامية

كانت بلغراد خلال الحكم العثماني من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في أوربا. وبالمقارنة مع استنبول، التي كانت بمثابة جسر بين قارتي آسيا وأوربا، كانت بلغراد تتميز بوجودها في العمق الأوربي. وعلىٰ الرغم من هذا الدور الثقافي الذي تمتعت به بلغراد فقد أدت حرب الاسترداد، كما سنرىٰ في الفصل اللاحق، إلى استئصال المؤسسات الأساسية للثقافة (الجوامع، المدارس، التكايا والمكتبات)، والتي كانت تحتوي علىٰ المصادر الأساسية للثقافة الإسلامية (المخطوطات)، مما أصبح من الصعب وصف المشهد الثقافي الذي امتازت به بلغراد خلال الحكم العثماني.

وكان التطور الثقافي في بلغراد، كما في أية مدينة إسلامية هنا، قد ارتبط منذ بدايته بالنواة الأساسية للمدينة «الجامع» ففي كل جامع أقيم الكُتَّاب لتعليم الأطفال، وكان بمثابة المدرسة الابتدائية في أيامنا، ثم أقيمت في إطار بعض الجوامع المدارس المتوسطة أو العليا، كما برزت المدارس المتخصصة كدور القرآن ودور الحديث. وفي إطار الجامع والمدرسة كانت المكتبة وما تشتمل عليه من مخطوطات للأساتذة والطلاب. وقد كان للأوقاف في هذا الاتجاه دور كبير. فالانفاق علىٰ هذه الكتاتيب والمدارس كان يتم من طرف الأوقاف، وهذا كان يشمل الانفاق على الطلاب أيضاً لتشجيعهم علىٰ طلب العلم. وفي هذا الإطار المتداخل برز الشعراء والكتاب والخطاطون

إلخ، الذين تمتعوا بشهرة كبيرة لا في البلقان وحسب وإنما في أرجاء الامبراطورية العثمانية كلها.

الكُتّاب:

في المدن الإسلامية في البلقان يكاد الكُتَّاب أن يكون مرادفاً للجامع، حيث إن كل جامع تقريباً كان يحتوي علىٰ كُتَّاب. وحتىٰ في القرىٰ الصغيرة التي كانت تفتقر إلىٰ جامع، كان المعلمون يأتون إليها من حين لآخر لتعليم الأطفال. وهذا الارتباط الوثيق بين الكُتَّاب والجامع كان طبيعياً في البلقان، حيث كان الإسلام قد بدأ في الانتشار في وسط جديد لا يعرف العربية، التي كانت ضرورية للتمكن من قراءة القرآن الكريم علىٰ الأقل. ومن هنا كان التعليم في هذه الكتاتيب يقوم أساساً علىٰ تعليم الأطفال مبادىء اللغة العربية لكي يتمكنوا من قراءة القرآن في اللغة التي أُنزل بها. وكان الكتاب دائماً في إطار الجامع، وكان شيخ الجامع يقوم بدور المعلم، وكان له راتبه اليومي من الأوقاف. ونظراً لهذا الترابط بين الكُتَّاب والجامع فقد ارتفع عدد الكتاتيب في بلغراد بارتفاع عدد الجوامع في المدينة، حتىٰ إن الرحالة أوليا شلبي ذكر في وصفه لبلغراد سنة (١٦٦٠) أنه كان في المدينة (٢٧٠) جامعاً ومسجداً و (٢٧٠) كُتَّاباً. وفي الواقع كانت هذه الكتاتيب هي القاعدة، كالمدرسة الابتدائية، التي تؤهل المهتمين لمتابعة دراساتهم في المدارس المتوسطة والعالية.

المدارس:

تعتبر المدرسة Medresa حلقة متطورة في المدن الإسلامية في البلقان، حيث كان الطالب يتعمق في علوم اللغة وآدابها بوجود المواد الأساسية كـ «علم اللغة»، «علم العروض»، «علم البلاغة» إلخ، وفي علوم الدِّين كـ «الفقه» و «التفسير» و «الحديث» و «العقائد» إلخ. وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أن غالبية نصوص هذه المواد كانت في اللغة العربية، نظراً للقداسة التي كانت تتمتع بها اللغة العربية علىٰ اعتبارها لغة القرآن الكريم والعلوم الدينية. وفيما يتعلق ببلغراد فقد برزت أول مدرسة من هذا النوع في

السنوات الأولىٰ للحكم العثماني (قبل ١٥٤٨) وهي «مدرسة محمد باشا» التي بناها محمد باشا في إطار جامعه الذي عُرف باسمه. وفيما بعد، حوالي (١٥٦٠) برزت «مدرسة بيرم بك» وبعد عدة سنوات (١٥٦٦) تذكر المصادر مدرسة ثالثة باسم «مدرسة أرسلان بك». وقد استمر عدد هذه المدارس في الارتفاع حتىٰ وصل إلىٰ ثمان في بداية النصف الثاني للقرن السابع عشر. ومن هذه المدارس، كما يذكر أوليا شلبي، كانت تشتهر بشكل خاص «مدرسة جامع العمارة» و «مدرسة بيرم بك».

كان لكل مدرسة أستاذ علىٰ الأقل، وبراتب جيد حسب مكانته (٢٥ ـ ٦٠) أقجة يومياً، ومعيد، وبواب. وعلىٰ الغالب كان في كل مدرسة مكتبة، وفي هذه الحالة كان هناك موظف خاص لشؤون الكتب والمكتبة. وفي هذه المكتبة كانت المخطوطات عادة في اللغتين العربية والتركية لخدمة الأساتذة والطلاب. وهذه المخطوطات غالباً ما كانت تأتي إلىٰ المكتبة عن طريق التبرع ـ الوقف، وخاصة من صاحب الأوقاف التي تمول المدرسة. وفي بعض هذه المدارس كان هناك قسم داخلي يوفر الإقامة الكاملة (النوم والطعام والمصروف) للطلاب.

ومن القرن الثامن عشر لدينا معطيات أكثر حول المدارس الأربعة التي استمرت في بلغراد. فعلىٰ رأس هذه المدارس من حيث المستوىٰ كانت «مدرسة السلطان محمود»، التي كانت في إطار جامعه في القسم المرتفع من القلعة. وهذا الجامع كان يحتوي علىٰ مكتبة وموظف خاص لشؤون الكتب براتب يومي قدره (١٥) أقجة. وحول هذه المكتبة لدينا فرمان صادر في نهاية آب (١٧٤٢) موجه إلىٰ محافظ بلغراد، وهو يتعلق بإرسال الكتب وحصر الاستفادة منها في مدرسة الجامع فقط. ونظراً للمستوىٰ الرفيع الذي كان لهذه المدرسة فقد كان الأستاذ يتقاضىٰ يومياً ستين أقجة، أي ما كان يتقاضاه الأساتذة في أشهر مدارس استنبول. وفيما يتعلق بعدد الطلاب في هذه المدرسة نجد أنه في سنة (١٧٧٦) كان عدد الطلاب (٢٧) طالباً، وفي سنة

(١٧٨٢) ارتفع العدد إلىٰ (٣٣) طالباً، بينما عاد في سنة (١٧٨٦) إلىٰ (٢٧) طالباً.

أما المدرسة الثانية فقد بناها الصدر الأعظم سعيد حسن باشا وكانت في إطار جامعه في القسم المنخفض من القلعة. كان راتب الأستاذ في هذه المدرسة أربعين أقجة يومياً. وقد كان لأستاذها المعروف الشيخ عمر دور في الأحداث السياسية التي عصفت ببلغراد في نهاية القرن الثامن عشر.

وترتبط المدرسة الثالثة باسم محافظ بلغراد يحيىٰ باشا خطيب زاده، الذي قام في الواقع بتجديد هذه المدرسة التي كانت معروفة سابقاً في بلغراد. وحسب وقفية يحيىٰ باشا فقد أصبح مفتي مدينة بلغراد أستاذاً في هذه المدرسة. واستناداً إلىٰ رغبة صاحب الوقف فقد كانت الدراسة في هذه المدرسة تركز علىٰ الشريعة وتفسير القرآن. وكان راتب الأستاذ كراتب شيخ الكُتَّاب، عشرون أقجة يومياً، كما كان لكل طالب مقيم في المدرسة مصروف يومي قدره ثلاث أقجات.

وإلىٰ جانب هذه أنشأ رئيس أفندي حاجي مصطفىٰ المدرسة الرابعة في إطار الجامع الذي قام بتجديده. ويبدو أن مستوىٰ هذه المدرسة كان لا يقارن بالمدارس الأخرىٰ، لأن راتب الأستاذ فيها كان عشر أقجات يومياً.

دور القرآن:

بالإضافة إلىٰ المدارس، كحلقة متطورة تقدم للطالب مختلف المعارف اللغوية والدينية، كان لدينا في بلغراد ـ كما في بقية المدن الإسلامية في البلقان ـ ما يسمىٰ بـ «دار القراء» التي كانت تختص بالقرآن الكريم. وكان علىٰ رأس هذه المدارس الاختصاصية شيخ القراء، الذي كان يتميز باطلاعه الواسع علىٰ أنواع القراءات والتجويد. ومن أشهر وأضخم هذه المدارس في بلغراد كانت تلك المدرسة التي أسسها أحمد باشا. فقد كان بناء هذه المدرسة يحتوي علىٰ عشرين قاعة للطلاب، بالإضافة إلىٰ قسم داخلي يتألف من أربع عشرة غرفة، حيث كان يُقبل به أفضل الطلاب، وكان لكل

طالب غرفة ومصروف خاص. وكان علىٰ رأس هذه المدرسة شيخ القراء، وكان إلىٰ جانبه ثلاثة أساتذة مساعدين، وإمام، ومؤذنين.

دور الحديث:

كانت «دار الحديث» حلقة أخرىٰ تختص بدراسة الحديث النبوي. وقد وصل عدد هذه الدُور في بداية النصف الثاني للقرن السابع عشر، كما يذكر أوليا شلبي، إلىٰ حوالي تسع دور. وفي حديثه عن هذه الدور يوضح لنا شلبي أن الحديث الشريف قد بدأ تدريسه في بلغراد منذ وصول شيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي إلىٰ المدينة، ومن ثم عاش بقية حياته في بلغراد كمفتي للمدينة ومدرس للحديث إلى أن توفي ودفن في جوار جامع العمارة.

التكايا:

بالإضافة إلى دورها الاجتماعي كان للتكايا دورها الثقافي أيضاً. فالتكية كانت مركز تثقيف لأتباعها، حيث كان الدراويش يبحثون عن المعرفة في المصادر الصوفية أو يتعاطون الكتابة وخاصة الشعر. وغالباً ما كان في كل تكية مكتبة تحتوي عادة علىٰ المخطوطات التي تتعلق بالتصوف، وفي هذه التكايا كان بعض الدراويش يشتغلون في نسخ المخطوطات. وبشكل عام نشأ في هذه التكايا أدب صوفي يغلب عليه الشعر. وقد مر معنا سابقاً أن غالبية الطرق الصوفية وفروعها المعروفة في العالم الإسلامي وجدت امتداداً لها إلى بلغراد، ووصل عدد التكايا في بداية منتصف القرن السابع عشر إلىٰ سبع عشرة تكية. إلا أن الظروف التي عصفت ببلغراد خلال حرب الاسترداد أدت إلىٰ استئصال التكايا أيضاً والقضاء علىٰ ما فيها من مخطوطات وأدب بطبيعة الحال، حتىٰ أنه لم يبق لنا شيء يذكر من تراث هذه التكايا.

الأدب والمؤلفات العلمية:

خلال تطورها الحضاري، الذي وصل إلى قمته في النصف الثاني للقرن السابع عشر، ازدهرت الثقافة في بلغراد بشكل واضح منذ بداية الحكم العثماني. وللأسف فإن معظم مصادر هذه الثقافة ـ المخطوطات ـ قد واجهت

مصيراً تعيساً مع محاولات «تحرير» بلغراد وتطهيرها من كل رمز ثقافي وحضاري إسلامي منذ نهاية القرن السابع عشر. ففي النصف الثاني للقرن السابع عشر كان في بلغراد بالتأكيد آلاف المخطوطات في مكتبات الجوامع والمدارس والتكايا والمكتبات الخاصة، ومن هذه لم يرحم الزمن إلا القليل الذي تسرب بشكل أو بآخر إلى خارج بلغراد. ويكفي أن نشير هنا إلى أنه في بلغراد، وبالتحديد في المكتبة الجامعية ـ قسم المخطوطات الشرقية، لا يوجد لدينا إلا مخطوطة لكتاب «المشارق» من سنة (١٧٥٢) وهي بخط أحمد ابن عثمان البلغرادي، إمام جامع الكتخدا في بلغراد. وكانت هذه المخطوطة قد تسربت بشكل ما إلى مدينة أخرىٰ في أقصى جنوب يوغسلافيا، وعادت ثانية إلىٰ بلغراد في خمسينيات هذا القرن. ومع هذا، بقي لنا ما يساعدنا علىٰ التعريف بالوسط الأدبي والعلمي في بلغراد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حين كانت بلغراد، وكما يؤكد الباحث ح . شعبانوفيتش، مركزاً معتبراً للثقافة الإسلامية.

وفيما يتعلق بالأدب يلاحظ هنا ازدهار الشعر بشكل خاص خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، حتىٰ إن بلغراد قدمت عدداً من الشعراء الذين كانت لهم شهرتهم في أرجاء الامبراطورية العثمانية. فمنذ (١٥٤٦) دخل في مختارات الشعر العثماني شاعران مولودان في بلغراد وهما «نوري» و «والي»، وكان من المعاصرين لهما شاعر آخر من بلغراد يدعىٰ زيني. وفي بداية العهد العثماني كان أرسلان باشا (توفي ١٥٦٦) معروفاً كشاعر باسم «سناني» أكثر من كونه إدارياً علىٰ رأس السنجق الذي كان مركزه بلغراد. وفي نهاية القرن السادس عشر اشتهر الشاعر «جناني»، الذي توفي شاباً حوالي سنة (١٥٩١) ومن هذه الفترة لدينا الشاعر صادق البلغرادي (توفي ١٥٩٤)، الذي لم يبق لنا من شعره للأسف إلا بعض الأبيات في ثنايا المختارات الشعرية، ومع هذا فقد اهتم به المستشرق هامر وترجم ما وجده له إلىٰ الألمانية. وفي منتصف القرن السابع عشر برز في الساحة الشعرية الشاعر نجمي البلغرادي. الذي اشتهر بشكل خاص بملحمته «الشاه

والشحاذ». ومن أعظم الشعراء الصوفيين كان الشاعر حبيبي البلغرادي، الذي كان من أتباع الطريق المولوية. وقد اشتهر هذا الشاعر بشروحاته لمثنويات الرومي، وبشكل خاص بديوانه الجميل الذي فقد للأسف فيما بعد. وقد توفي هذا الشاعر حوالي (١٦٤٠ ـ ١٦٤٣) ودفن في جوار التكية المولوية في بلغراد. ومن القرن السابع عشر لدينا أيضاً عدة شعراء من أبرزهم الشاعر أميري البلغرادي، الذي تميز بأشعاره الوجدانية وبحضوره في عدة مختارات شعرية، كما برز في ذلك القرن من الشعراء القاضي محترم البلغرادي وحسيب أحمد شلبي (توفي ١٧٠٤) وغيرهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الشعراء من مدينة بلغراد اشتهروا في البلاد العربية أيضاً. ومن أهم هؤلاء دون شك الشاعر حسين باشا البلغرادي، الذي لدينا له ترجمة وافية في «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» حيث يصفه المحبي بأنه «واحد الدهر علىٰ الاطلاق.. ورأس الفضلاء في وقته». وقد ذكر المحبي، نقلاً عن الشيخ مدين القوصوني، أن ولادة الشاعر كانت في بلغراد في الثاني عشر من شوال (٩٥٨) هـ = (١٥٥١) م. ويبدو أن هذا الشاعر أنهى دراسته في وقت مبكر لأنه عين قاضياً في المدينة وبعد ذلك انتقل إلىٰ مصر حيث قضىٰ في القاهرة بقية حياته إلى أن توفي في شهر رجب (١٠٢٣ هـ = ١٦١٤ م) وقد اختار له المحبي مع ترجمته في «خلاصة الأثر بعض أبياته بينما أثبت له قصيدة كاملة في كتابه الآخر «نفحة الريحانة». وقد اهتم بهذا الشاعر عدة باحثين في يوغسلافيا، بالإضافة إلىٰ الباحث المصري د. كامل البوهي، الذي خص هذا الشاعر بتحليل جيد في رسالته للدكتوراه «المؤلفات العربية للكتاب اليوغسلاف». وفي الواقع إن ما كتبه حسين باشا البلغرادي في اللغة العربية يدل على أنه كان شاعراً جيداً في ذلك الوقت.

وبالإضافة للشعر برز في بلغراد خلال العهد العثماني عدد من العلماء كالمؤرخ ورجل الدولة فريدون بك، وشيخ الإسلام عبد الرحيم أفندى إلخ.

ويكفي أن نشير هنا إلىٰ أنه في (١٦٤٢ ـ ١٦٤٣) جاء إلىٰ بلغراد الأستاذ البوسنوي عبد الكمال الترافنيكي حيث فوجيء بوجود كبار العلماء فيها «الذين لا يجاريهم أحد في الامبراطورية العثمانية». ومن أهم هؤلاء العلماء دون شك الشيخ إبراهيم بن إسكندر المعروف بـ منيري البلغرادي. وقد اهتم بهٰذه الشخصية عدة باحثين إلى أن قدم الباحث ح. شعبانوفيتش أفضل دراسة عن هذا العالم وأثاره، حيث وضح فيها بعض المعطيات الجديدة وصحّح بعض المعلومات الخاطئة عنه.

ويبدو أن منيري البلغرادي من أصل بوسنوي، وقد يكون من مواليد البوسنة، إذ أن كل المصادر تلقبه بـ «البوسنوي». ومع أن هـٰذه المصـادر لا تحدد مكان ومستوىٰ دراسته إلا أنه من المؤكد قد أنهىٰ دراسته في أعلىٰ المدارس في استنبول وبعد تخرجه عُيّن أستاذاً ومفتياً في بلغراد، وكان إلىٰ جانب هذا واعظاً في أحد الجوامع. وقد قضىٰ حياته ما بين الوعظ وتقديم الفتاوى وتأليف الكتب. ويُستفاد من مقدمة كتابه «سلسلة المقربين» في أنه كان أستاذاً في مدرسة محمد باشا المعروفة في بلغراد. وهناك ما يشير إلىٰ أنه بقي حياً حتى نهاية عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧)، ولذلك يُعتقد بأنه قد توفي في سنة (١٧١٦) أو (١٧١٧) وقد دفن حينئذ في جوار جامع محمد باشا الذي كان معروفاً باسم «جامع العمارة».

كان منيري البلغرادي يتمتع بشهرة كبيرة كعالم يمتاز بثقافة واسعة، وقد بقيت هذه الشهرة تصاحب اسمه إلىٰ ما بعد وفاته بوقت طويل، وحتىٰ إن كاتب شلبي يعترف بأنه لم يكن يضارعه أحد في عصره. ومما يدل علىٰ مكانته مراسلاته مع المشايخ المعروفين في عصره. وكان منيري، في تعرضه لسلوك وأعمال بعض الدراويش، قد انتهىٰ إلىٰ رأي سلبي حول كل الدراويش في ذلك العصر. ورداً علىٰ هذا كتب له شيخ الطريقة الخلوتية محمود هداي، وشيخ الطريقة الملامية حسين لامكاني، عدة رسائل يدافعان فيها عن التصوف في أنه لا يجوز الحكم علىٰ كل الدراويش من خلال

تصرفات البعض. ويبدو من نسخ هذه الرسائل أنها كانت معروفة من قبل المثقفين.

امتاز منيري البلغرادي بنشاط واسع إذ جمع بين الأستاذية والوعظ والافتاء من ناحية، وبين الشعر والعلم من ناحية أخرىٰ. وللأسف لم يبق لنا من شعره إلا القليل بينما نعرف أكثر من مؤلفاته العلمية مع أن بعضها ما زال مفقوداً حتىٰ الآن، ولا نعرف إلا موضوعاتها:

- «سبعيّات»

ألّف هذا العمل في اللغة العثمانية حول جغرافية الأرض. وفي هذا العمل، واستناداً إلىٰ المفاهيم اليونانية القديمة، يقسم الأرض إلىٰ سبعة أقاليم ويتحدث عن كل إقليم علىٰ حدة. وللأسف لم يتم العثور إلىٰ الآن علىٰ أية مخطوطة لهذا العمل.

- «سلسلة المقربين ومناقب المتقين»

يحتوي هذا المؤلف علىٰ سلاسل أهم الطرق الصوفية وسير لمئة وواحد وعشرين شيخاً من مشايخ هذه الطرق الذين عاشوا في الأناضول أو في الرومـلي (أوربا العثمانية) إلىٰ نهاية عهد السلطان أحمد الأول (١٦١٧). ونظراً لأهمية الدور الذي مارسته الطرق الصوفية ومشايخ هذه الطرق في الامبراطورية العثمانية، وخاصة في البلقان، فإن لهذا العمل قيمة كبيرة. والمخطوطة الوحيدة المعروفة لهذا المؤلف محفوظة الآن في المكتبة السليمانية في استنبول، وقد نسخت بيد شخص يدعىٰ إسحاق سنة (١٠٤٥) هـ = (١٦٣٥ - ١٦٣٦) م. وفي نهاية هذه النسخة لدينا رسالة الشيخ لاكماني، وردُّ منيري البلغرادي عليه حول التصوف.

- «نصاب الانتساب وأدب الاكتساب»

يتعـرض هذا المؤلَّف إلىٰ قضيـة مهمـة في الاقتصـاد والمجتمـع الإسلامي، ألا وهي روابط الأصناف، وفي هذا ينطلق بطبيعة الحال من واقع هذه الروابط في بلغراد. ومن المعروف أن بعض الأصناف كانت مرتبطة

ببعض الطرق الصوفية، مما كان ينشأ عن هذا ممارسات معنية. وأهمية هذا المؤلَّف تكمن في أن صاحبه، في توضيحه لرأي الشريعة في الاقتصاد ورفضه للميول الشيعية، يحدد موقف أهل السُّنَّة إزاء هذه القضية. ومن هذا المؤلَّف لا توجد إلا مخطوطة واحدة محفوظة اليوم في المكتبة الوطنية في برلين.

- «سبل الهدىٰ»

رسالة في اللغة العثمانية، وهي عرض مختصر لشعائر الوضوء والصلاة لأولئك الذين لا يعرفون اللغة العربية. ومن هذه الرسالة توجد نسخة محفوظة اليوم في مكتبة الغازي خسرو بك في سراييڤو.

- «تحفة النصيحة»

ورد ذكر هذا المؤلَّف لدىٰ بعض الباحثين، وباستثناء العنوان لا نعرف أي شيء عن مضمونه.

* * *

الفصل الرابع

حرب الاسترداد

الوضع العام في الامبراطورية العثمانية:

بلغت الامبراطورية العثمانية أقصىٰ توسع لها في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)، وبقيت هذه الدولة متماسكة وقوية في وجه أوربا حتىٰ عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠)، الذي كان آخر من جلس علىٰ عرش الامبراطورية من السلاطين الأقوياء. وقد تميزت الفترة اللاحقة بالصراع علىٰ العروش، بعد أن تم التخلي في الربع الأول للقرن السابع عشر عن مصر وراثة العرش لابن السلطان الحاكم، والسماح لأكبر أفراد العائلة بتولي السلطنة، فعزل السلطان إبراهيم الأول وقتل سنة (١٦٤٨)، وتولىٰ بعده السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٨) الذي تميز عهده ببروز تدخل نساء القصر في السياسة، وأدى هذا إلى تقلص دور السلطان في قيادة الجيش والدولة. وقد انعكس تراجع السلطان عن ممارسة التقاليد الكفاحية السابقة علىٰ الوضع الداخلي في الامبراطورية، فبدأت الفوضىٰ والرشوة وتسلط الجيش الانكشاري علىٰ الوضع في العاصمة، وأصبح الصدر الأعظم ضحية لهذه التحولات. فعندما حاول الصدر الأعظم أحمد باشا الألباني (١٦٥٢ ـ ١٦٥٣) وهو من مواليد ألبانيا، أن ينقذ الوضع بمكافحة الرشوة وتنظيم أول ميزانية للدولة لضبط النفقات، جوبه بمقاومة عنيفة وقُطع رأسه بعد تسعة شهور فقط من توليه للمنصب.

وقد تعرض لهذا المصير الصدر الأعظم اللاَّحق كارا مراد باشا، وهو ألباني أيضاً، وقد سقط كسلفه ضحية للانكشاريين سنة (١٦٥٥) وقد جاء في

السنة التالية (١٦٥٦) ألباني آخر إلى هذا المنصب، هو مصطفىٰ باشا، إلا أنه عزل بعد عدة شهور من قبل الانكشارية، الذين أصبح اهتمامهم بالسلطة أكبر من اهتمامهم بالحياة العسكرية وبالوضع علىٰ حدود الامبراطورية. وكان من الطبيعي أن تنعكس هذه الفوضىٰ علىٰ هيبة الامبراطورية أمام القوىٰ الخارجية حتىٰ إن أسطول البندقية تمكن سنة (١٦٥٦) من احتلال الدردنيل وتهديد استنبول ذاتها. وفي هذه السنة، التي بدت فيها الامبراطورية علىٰ وشك الانهيار، حدث تحول كبير في العاصمة بانتقال زمام المبادرة من القصر السلطاني إلىٰ الباب العالي، مقر الصدر الأعظم، وذلك مع تسلم عائلة كوبريلي الألبانية منصب الصدارة العظمىٰ.

قام الصدر الأعظم محمد كوبريلي (١٦٥٦ ـ ١٦٦١) بتثبت الوضع في الداخل وذلك بالقضاء علىٰ الفساد والرشوة وضبط الانكشارية وإحياء روح الجهاد في الجيش، وبذلك أخذت الامبراطورية بالانتعاش مرة ثانية. فقد تمكن الصدر الأعظم في العام الثاني لتوليه منصبه من هزيمة اسطول البندقية وإجلائه عن الدردنيل، ثم شدّد الحصار ثانية علىٰ جزيرة كريت وأعد الجيوش لمتابعة الفتوحات العثمانية في أوربا. وقد تابع ابنه الصدر الأعظم أحمد كوبريلي (١٦٦١ ـ ١٦٧٦) سياسة أبيه في بعث مجد الامبراطورية العثمانية، إذ صادف توليه للسلطة نهاية تحالف النمسا مع الامبراطورية، فقاد جيشاً ضخماً يتألف من حوالي ٢٠٠ ألف جندي وعبر الدانوب وتغلغل في الأراضي النمساوية حتىٰ أسوار أولْمَتز في مورافيا. وقد أثار هذا التغلغل العثماني في العمق الأوربي ملك فرنسا لويس الرابع عشر، فأرسل جيشاً من ثلاثين ألف جندي لمساعدة النمسا، مما اضطر أحمد كوبريلي أن يتراجع أمام الجيشين النمساوي والفرنسي بعد المعركة التي جرت بالقرب من سنفوتار (١٦٦٤) ومع ذلك وافق الامبراطور النمساوي في معاهدة (١٦٦٤) علىٰ الاعتراف بسيادة السلطان العثماني علىٰ منطقة ترانسلفانيا.

وبعد هذا الاستقرار علىٰ الجبهة العثمانية ـ النمساوية قاد أحمد

كوبريلي جيشه لحصار كريت، بعد أن كانت قد استقرت في يد البندقية، وتمكن من فتحها أخيراً في أيلول (١٦٦٩) وتحت تأثير هذا الحماس أعلن أحمد كوبريلي الحرب علىٰ بولونيا سنة ١٦٧٢، استجابة لنداء القوقاز، الذين كانوا قد ثاروا ضد الحكم البولوني. وقد استمرت الحرب العثمانية ـ البولونية حوالي سنتين (١٦٧٢ ـ ١٦٧٤) إلىٰ أن تم التوقيع علىٰ صلح زرانو (١٦٧٦) وبموجبه تنازلت بولونيا عن إقليم بـادوليا وعن جـزء من إقليم أوكرانيا. وبعد سبعة أيام من توقيع المعاهدة توفي الصدر الأعظم أحمد كوبريلي بعد أن أعاد للامبراطورية العثمانية مجدها السابق.

في هذه الظروف تولىٰ صهره كارا مصطفى منصب الصدر الأعظم وكان يدفعه الحماس إلىٰ متابعة الفتوحات العثمانية في أوربا وتحقيق الحلم العثماني بفتح ڤيينا. وللوصول إلىٰ هذا الهدف قام كارا مصطفىٰ بلعبة دبلوماسية كبرىٰ، فجدد علاقات الامبراطورية الودية مع فرنسا وعقد صلحاً مع روسيا القيصرية ووثق علاقاته ببولونيا وأقام صلات مع المجريين الساخطين علىٰ سياسـة ڤيينا، مما جعل الامبراطور النمساوي في عزلة تامة. وبعد هذه المناورة قام كارا مصطفىٰ في ربيع (١٦٨٣) بعبور الدانوب علىٰ رأس جيش مؤلف من ٢٠٠ ألف جندي و ٣٠٠ مدفع وتغلغل في عمق الأراضي النمساوية مما أرغم الامبراطور النمساوي علىٰ التخلي عن ڤيينا والانتقال إلىٰ بَسّاو مع حاشيته. وأخيراً، في أوائل تموز (١٦٨٣) وصلت القوات العثمانية وأحكمت الحصار حول ڤيينا. وفي غضون هذا نقض الملك البولوني سوبيسكي اتفاقه مع العثمانيين وانحاز بجيشه إلىٰ الجانب النمساوي. وفي أيلول (١٦٨٣) وصلت القـوات النمساويـة ـ البولـونية إلىٰ ڤيينـا، التي كانت قـد أشرفت علىٰ الإستسلام، حيث دارت معركة عنيفة انتهت إلىٰ هزيمة العثمانيين حتىٰ أن كارا مصطفىٰ اكتفىٰ بالنجاة بحياته وتمكن أخيراً من تجميع ما بقي من جيشه عند بلغراد. وقد دفع كارا مصطفىٰ رأسه ثمناً لهذه الهزيمة ـ الكارثة. وقد لقي خلفه إبراهيم باشا المصير نفسه بعد أن هزمه الجيش البولوني، الذي أرغم القوات العثمانية على الانسحاب من المجر في تشرين الأول ١٦٨٣.

كانت هزيمة العثمانيين عند ڤيينا من أهم حوادث التاريخ في القرن السابع عشر فنتيجة لهذه الهزيمة بدأ انحدار الامبراطورية العثمانية وانتقل زمام المبادرة إلىٰ الدول الأوربية، التي كانت حتىٰ هذه الهزيمة في حالة دفاع بينما أصبحت بعد هذه الهزيمة في حالة هجوم. ففي سنة (١٦٨٤) انضمت جيوش البندقية إلىٰ جيوش الملك البولوني سوبيسكي في ملاحقة القوات العثمانية. والأهم من هذا أن سنة (١٦٨٤) شهدت ولادة «الحلف المقدس» بين النمسا وبولونيا والبندقية ضد الامبراطورية العثمانية، وانضمت روسيا إلى هذا الحلف مما جعل الامبراطورية العثمانية محاصرة من أكثر من جهة. ففي (١٦٨٥) تمكن الجيش النمساوي من استرجاع معظم المجر وفي السنة التالية اضطر العثمانيون للتخلي حتىٰ عن بودابست. وفي غضون هذا بادرت قوات البندقية إلىٰ احتلال عدة مدن علىٰ الساحل الأدرياتيكي في ألبانيا، وفي ١٦٨٧ تعرض العثمانيون لهزيمة كبيرة أخرىٰ عند مدينة موهكز أدت إلى تخليهم للنمساويين عن كراوتيا وسلاڤونيا. وقد شجعت هذه الهزائم المتتالية للعثمانيين الجيش النمساوي فعبر «الخط الأحمر» (الدانوب) واستولىٰ علىٰ بلغراد ثم تغلغل في الجنوب حتىٰ وصل إلى مدينة نيش Nish خلال (١٦٨٨). وهكذا خلال خمس سنوات فقط (١٦٨٣ - ١٦٨٨) أصبح همُّ القوات العثمانية الدفاع عن استنبول، بعد أن كادت ترغم ڤيينا علىٰ الإستسلام.

وقد أدت هذه الهزائم المتتابعة إلى تحرك الجيش العثماني في العاصمة وثورته علىٰ السلطان والصدر الأعظم. ففي (١٦٨٧) عزل السلطان محمد الرابع وولي مكانه سليمان الثاني (١٦٨٧ - ١٦٩١)، كما أعاد الجيش إلىٰ منصب الصدر الأعظم أحد أفراد عائلة كوبريلي وذلك لإنقاذ الوضع من الانهيار. وفي هذه الظروف جاء الصدر الأعظم مصطفىٰ كوبريلي وتمكن بأعجوبة من استرداد المبادرة خلال سنة واحدة. ففي (١٦٩٠) استرجع نيش وبلغراد من النمساويين وتابع تقدمه في المجر، إلا أنه قتل في معركة سلانكلمن خلال تموز (١٦٩١). وبعد وفاة هذا القائد تعرضت الجيوش

العثمانية إلى عدة هزائم أخرىٰ ووجد العثمانيين أنفسهم مرغمين علىٰ التوقيع علىٰ صلح كارلوفتز (١٦٩٩) الذي اعتُبر بداية النهاية للامبراطورية العثمانية. وقد تخلىٰ العثمانيون بموجب هذا الصلح عن المجر وترانسلڤانيا وبودوليا وغيرها وأصبحت مدينة بلغراد علىٰ الحدود الآن التي تفصل بين العثمانيين والنمساويين.

بعد هذا الصلح، الذي تأكد فيه ضعف الامبراطورية العثمانية، برزت الآن الامبراطورية النمساوية ـ المجرية كقوة رئيسية في مواجهة العثمانيين في أوربا. ومع هذا الانعطاف انتعشت في ڤيينا روح جديدة تمخّضت عنها حرب الاسترداد. وفي الواقع إن تعبير «حرب الاسترداد» نشأ في إسبانيا ويعبر عن عقلية معينة لا تقبل التعايش مع ما طرأ علىٰ الواقع من تغييرات حضارية عميقة، بل تهدف إلىٰ محـو كل شيء وإعادة الواقع إلىٰ ما كان عليه قبل عدة قرون. وفي هذا الإطار فإن بلغراد تمثل رمزاً لما تعنيه حرب الاسترداد.

بلغراد تحت الحكم النمساوي (١٦٨٨ ـ ١٦٩٠):

أثارت الهزائم المتتالية التي حلّت بالجيش العثماني طموح القيادة العسكرية النمساوية لعبور نهر الدانوب وملاحقة العثمـانيين في البلقان. وهكذا، في نهاية صيف (١٦٨٨) توجه جيش نمساوي يتألف من خمسين ألف جندي لحصار بلغراد «بوابة البلقان والشرق»، وبعد شهر من الحصار تمكن الجيش النمساوي من دخول المدينة في ٦ أيلول. وقد كان ذلك كارثة حقيقية لبلغراد، إذ أن القصف النمساوي العنيف والمتواصل خلال شهر الحصار أدىٰ إلىٰ تدمير جزء كبير من القلعة والمدينة، كما أن دخول الجيش النمساوي صاحبه قتل ونهب السكان الأبرياء. وفي الواقع لقد انصب انتقام النمساويين على المسلمين واليهود. وهكذا تعرض اليهود لأول اضطهاد عنيف بعد قرنين من الحياة الهادئة في ظل الحكم العثماني، فقد كُلفوا مع الأسرىٰ المسلمين بتطهير المدينة من جثث القتلىٰ، وتعرضوا للنفي بعد ذلك إلىٰ مدن ألمانيا وخاصة إلىٰ نيكولس بورغ.

وقد أثار سقوط بلغراد في يد الجيش النمساوي موجة من الحماس في أوربا، وخاصة في النمسا. ففي شوارع ڤيينا احتشد الناس للاحتفال بهذا النصر وتوجت هذه الاحتفالات بإقامة صلاة الشكر في كنيسة القديس ستيفان، كما وزعت في هذه المناسبة الميداليات التي نقشتْ عليها صورة بلغراد.

وعلىٰ الرغم من أن الحكم النمساوي للمدينة لم يستمر أكثر من سنتين فقد عمدت السلطات النمساوية إلى التصرف في المدينة بروح مسيحية استردادية. وفي هذا الاتجاه كانت جوامع المدينة، سواء في هذه الفترة أو في القرون اللاحقة، هي الرمز للواقع الذي يجب نفيه لاستعادة الماضي. ونظراً لأن فترة الحكم النمساوي كانت قصيرة جداً، وبالتالي لا يتوفر حولها الكثير من المعطيات، إلا أنه من المعروف أن كل طائفة كاثوليكية حصلت علىٰ جامع لتستخدمه كما تريد وغالباً ما كانت تحوله إلىٰ كنيسة خاصة بها. فقد حصل الفرنسيسكان مثلاً على جامع في وسط القسم الدانوبي من المدينة، بينما حصل الجزويت على جامع آخر وهكذا. ومن المؤكد أن عدداً آخراً من الجوامع قد استخدم لأغراض عسكرية في هذه الفترة.

عودة بلغراد إلىٰ الحكم العثماني (١٦٩٠ - ١٧١٧):

تمكن العثمانيون بقيادة الصدر الأعظم أحمد كوبريلي، كما رأينا سابقاً، من استعادة زمام المبادرة العسكرية لفترة قصيرة ١٦٨٩ - ١٦٩١. وخلال هذه الفترة قاد أحمد كوبريلي الجيش العثماني لاسترجاع نيش، ثم حاصر بلغراد في تشرين الأول ١٦٩٠ وتمكن من استرجاعها بعد أسبوع من الحصار. وفي الواقع تميزت هذه الفترة باستمرار القتال من حين لآخر علىٰ الجبهة العثمانية - النمساوية حتىٰ صلح كارلوفتز ١٦٩٩، الذي تنازل فيه العثمانيون عن المناطق الواقعة شمال الدانوب والسافا. وفي هذا الوضع أصبحت بلغراد قلعة - مدينة حدودية للعثمانيين في وجه النمساويين. ونظراً لأن الوضع العسكري لم يستقر علىٰ الجبهة العثمانية - النمساوية خلال هذه

الفترة للحكم العثماني ١٦٩٠ ـ ١٧١٧ فقد بقيت بلغراد تعاني بدورها من عدم الاستقرار.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن استرجاع العثمانيين للمدينة قد صاحبه انفجار مخزن للبارود مما دمّر قسماً من المدينة. وخلال هذه الفترة ١٦٩٠ ـ ١٧١٧ قام العثمانيون بإصلاح ما يمكن إصلاحه في المدينة، مع بناء بعض المنشآت الجديدة. وفي هذا الاتجاه اهتم العثمانيون أولاً بترميم وتجديد ما بقي من الجوامع، التي كانت قد حولت إلىٰ كنائس أو إلى مراكز عسكرية خلال الحكم النمساوي القصيرة وإلىٰ جانب هذا بنىٰ العثمانيون جامعين جديدين في هذه الفترة. وفي الواقع لقد تأثرت بلغراد بكارثة أخرىٰ خلال هذه الفترة إذ تعرضت لحريق نشب فيها في ٩ تشرين الثاني ١٦٩٨. ونظراً لتقلب الوضع وعودة الضغط العسكري النمساوي علىٰ بلغراد وعلىٰ بقية الجبهة فإن تطور بلغراد كان محدوداً خلال هذه الفترة المضطربة. وفي الواقع لقد انعكست هذه التطورات على التركيب السكاني للمدينة أيضاً. فقد عاد المسلمون إلى المدينة ولكن بعدد أقل مما كانوا عليه في السابق، كما قلّ كثيراً عدد اليهود، بينما أصبحت المدينة خالية من الأرمن والراغوصيين.

بلغراد تحت الحكم النمساوي (١٧١٧ ـ ١٧٤٠):

بعد صلح كارلوفتز، الذي تأكد فيه ضعف الامبراطورية العثمانية، أخذت القيادة العسكرية النمساوية في الاستعداد لجولة حاسمة أخرىٰ مع العثمانيين في البلقان. وهكذا، في صيف ١٧١٧، شنت النمسا الحرب علىٰ العثمانيين وتقدم جيشها نحو بلغراد، حيث جرت في ١٦ آب واحدة من أكبر المعارك في التاريخ الحديث. ونتيجة لهزيمة العثمانيين في هذه المعركة سيطر النمساويون علىٰ بلغراد وشمال صربيا واحتفظوا بهذه المناطق بموجب الصلح الذي تم التوصل إليه مع العثمانيين في ١٦١٨. وبالمقارنة مع الفترة الأولىٰ ١٦٨٨ ـ ١٦٩٠ تميز الحكم النمساوي في هذه الفترة باستمرارية أطول وبوضوح أكثر لروح حرب الاسترداد وممارستها علىٰ الواقع لإنجاز ألْمَنَة وكَثْلَكَة المدينة في آن واحد.

كانت بلغراد خالية من المسلمين، الذين كانوا قد فرّوا بجلودهم لكي لا يقعوا مرة ثانية تحت رحمة النمساويين كما حصل سنة ١٦٨٨، ولذلك تغير التركيب السكاني للمدينة تماماً مع قدوم السكان الجدد في أعقاب الجيش النمساوي. ومع هذا فقد كانت بلغراد في نهاية سنة ١٧١٧ لا تقارن من حيث عدد السكان بماكانت عليه قبل نصف قرن. ففي أول إحصاء للمدينة، في تشرين الثاني ١٧١٧، تشير المعطيات إلىٰ وجود **٩٢٤** عائلة فقط في المدينة، أي حوالي ٥ ـ ٦ آلاف نسمة. وحسب هذا الإحصاء أصبحت بلغراد تبدو الآن بشكل مختلف تماماً. ففي القسم الدانوبي، الذي أصبح يدعىٰ الآن القسم الألماني، كانت تعيش **٤٥٩** عائلة (**٣٣٣** نمساوية، **٢٩** أرمنية، **٣٩** أرثوذكسية، ١١ مجرية، **١٣** ألمانية، و**٣١** مسلمة)، بينما كانت تعيش في القسم الساقي **٤٦٥** عائلة (**٤٥٥** أرثوذكسية و ١٠ ألمانية). ومع أن هذا الإحصاء يفيد بوجود (٣١) عائلة مسلمة فقط في ١٧١٧ إلا أنه حتىٰ هؤلاء تلاشوا تماماً حتىٰ سنة ١٧١٩. ففي هذه السنة، كما يقول الرحالة دريش الذي كان في بلغراد، لم يبق أحد من المسلمين في المدينة باستثناء درويش واحد. وهذا الدرويش، كما وصفه لنا دريش، كان في حالة تثير الرثاء لما حدث في المدينة. فقد كان هذا الدرويش يعيش في العراء ويأكل الجذور والنباتات ولا ينظر إلىٰ أحد ولا يكلم إلا نفسه. وباستثناء هذا بقي من المسلمين بعض الغجر ولكن خارج المدينة.

وكانت السلطات النمساوية، حتىٰ قبل التوصل إلىٰ صلح ١٧١٨، قد أخذت تعمل بسرعة علىٰ خلق واقع جديد في المدينة وذلك بتشجيع النمساويين والألمانيين علىٰ الهجرة من مختلف المناطق للقدوم والاستيطان في بلغراد وذلك لتعزيز الطابع الألماني للمدينة. وفي الواقع كانت السياسة النمساوية لا تهدف إلىٰ أَلْمَنَة المدينة فقط بل وإلىٰ كَثْلَكَتها. ففي ١٧١٨ اتخذت «لجنة المناطق المفتوحة» قراراً يؤكد على أن تكون بلغراد بغالبية كاثوليكية. وقد صاحب هذا قدوم الكثير من الكاثوليكيين من المناطق المختلفة للامبراطورية العثمانية (من المجريين والتشيك والكراوتيين

والايطاليين إلخ) للإقامة في بلغراد. ولإنجاز كَثْلَكة المدينة جاءت عدة جماعات كاثوليكية إلىٰ بلغراد كالجزويت والفرنسيسكان وغيرهم لنشر «الدين الصحيح». وفي هذه الظروف، بعد أن أصبحت المدينة خالية من المسلمين، عمدت الإدارة النمساوية إلىٰ التخلص من كل المنشآت الحضارية التي بقيت شاهدة علىٰ تراث ماضي المدينة وذلك لمحو كل أثر يذكر بالشرق والإسلام.

كان أول قرار للإدارة النمساوية هو «تطهير المدينة وهدم المباني القديمة وغير المستعملة» مما شمل التخلص من قسم من جوامع المدينة. ومع هذا فقد بقي في المدينة عدد كبير من الجوامع وهذا، كما يقول المؤرخ نيكيتش، لم يكن نتيجة لتسامح الحكم النمساوي بل لأغراض عملية بحتة. فمن المعروف أن الجوامع كانت مبنية بشكل متين ولذلك تم الحفاظ عليها لاستخدامها لأغراض مختلفة. وفي الواقع لقد تم اقتسام هذه الجوامع التي بقيت بين الإدارة النمساوية والكنيسة الكاثوليكية. فقد أخذت الإدارة النمساوية حوالي عشرة جوامع لتستفيد منها في شتىٰ الأغراض. فتم تحويل أحد الجوامع إلىٰ مستشفىٰ، وآخر إلى مخزن للملح، وثالث إلى كراج لعربات الملح، ورابع إلى مخزن للعلف، وخامس إلى مخزن للمعدات العسكرية، وسادس إلى مسرح تعرض فيه الكوميديات إلخ.

أما القسم الآخر من الجوامع فقد منحته الإدارة النمساوية للجماعات الكاثوليكية لتستخدمه ككنائس لها بالإضافة إلىٰ بعض البيوت. فقد حصل الجزويت على ثلاثة بيوت وجامع حوّلوه إلىٰ كنيسة لهم، بينما أخذ الفرنسيسكان جامعين وحوّلوهما إلى كنيستين خاصتين بهم. وقد أخذ الكابوتشيون أيضاً عدة بيوت وجامع لتحويله إلى كنيسة لهم، وحصل كذلك الترينيتار Trimitar علىٰ عدة بيوت وجامع ليجعلوه كنيسة لهم. ومن بقية الجماعات الكاثوليكية حصل المينوريت والأرمن الكاثوليك علىٰ جامع لكل منهم. وحول مصير الجوامع يكشف لنا إحصاء ١٧٢٨ عن وجود سبعة عشر

جامعاً في بلغراد الألمانية (الدانوبية) فقط. ومن هذه نعرف أن سبعة منها كانت في تصرف الإدارة وتستخدم كمخازن أو للأغراض العسكرية، بينما أصبحت سبعة جوامع تستخدم ككنائس لمختلف الجماعات الكاثوليكية التي وفدت علىٰ المدينة. وبالإضافة إلـىٰ هذه كان هناك جامعان أيضاً، كان الأول يستخدم كمستشفىٰ عسكري في ضاحية المدينة بينما كان الثاني يقع في طرف المدينة وتم تحويله إلىٰ كاتدرائية كاثوليكية.

وتجدر الإشارة إلى أن روح الاسترداد كان يـطغىٰ عليها التعصب الكاثوليكي ولذلك لم تمنح الإدارة النمساوية أي جامع للأرثوذكس ليحولوه إلى كنيسة خاصة بهم. وكان هذا ينسجم مع قرار الإدارة النمساوية بأن تتكون بلغراد من غالبية كاثوليكية، ولذلك اتبعت الإدارة سياسة تمييز واضحة ضد الأرثوذكس. ومع هذا فقد سمحت الإدارة النمساوية للأرثوذكس، أو تسامحت معهم، علىٰ تحويل الجوامع إلىٰ كنائس أرثوذكسية في المدن القريبة من بلغراد (كورتسكو، تشاتشاك، كراغويفتس إلخ) حيث كانت غالبية السكان من الصرب الأرثوذكس.

وقد تصرفت الإدارة النمساوية على هذا النحو مع بقية المنشـآت الحضارية كالحمامات والخانات إلخ، التي كانت تعتبر من رموز الحضارة الإسلامية. ومن المعروف أنه في العهد العثماني كان في المدينة سبعة حمامات، أما في هذه الفتـرة فقد بقيت أربعـة فقط وأصبحت تستعمل لأغراض مختلفة. فأحد أجمل الحمامات في المدينة كان يتبع الأرمن إلا أن هؤلاء اضطروا لتسليمه إلى الإدارة النمساوية، طبقاً لقرار خاص في ١٧٢٧، وذلك لإعداده حسب «الطريقة المسيحية». وقد حولت الإدارة النمساوية الحمام الثاني إلى ورشة لصنع البارود، وأصبح الحمام الثالث بيتاً للسكن، بينما لا نعرف شيئاً عن كيفية استخدام الحمام الرابع. وعلىٰ هذا النحو تم التعامل أيضاً مع الخانات التجارية. فقد تم تحويل أكثر الخـانات إلىٰ اسطبلات للخيول أو إلىٰ ثكنات للجيش النمساوي.

وفي الواقع لقد تمت هذه التغيرات بسرعة كبيرة وتمكن الحكم النمساوي من تغيير معالم المدينة خلال فترة قصيرة للغاية. فبعد سنتين فقط من الحكم النمساوي، في ١٧١٩، كتب الرحالة دريش يقول: «من شاهد بلغراد في عهد الأتراك ويعود لمشاهدتها اليوم لا يمكن أن يقول أبداً أن هذه المدينة هي بلغراد السابقة». ويعبر هذا الرحالة عن مشاعر تلك الفترة في مقطع آخر قائلاً: «إلى عهد قريب كانت بلغراد تتبع المحمّدية... أما الآن فقد بدأت المسيحية تزدهر وعادت كنائس المدينة لتكتسب قدّيسيها القدماء».

ومع هذا فقد تميزت سياسة الحكم النمساوي في هذه الفترة بالتمييز ما بين المسيحيين على أساس دعم الكاثوليكية والتضييق على الأرثوذكسية، مما قلب الوضع بالمقارنة مع الحكم العثماني السابق. ففي هذه الفترة كانت الكنيسة الكاثوليكية تحظى بامتيازات لا حصر لها من قبل الإدارة النمساوية. فقد كانت هذه الكنيسة تحصل مجاناً على ما تحتاجه من أبنية لنشاطاتها (بيوت، جوامع) ولا تدفع أية ضريبة وتحصل فوق هذا على مساعدات مادية من الإدارة النمساوية، بينما كانت الكنيسة الأرثوذكسية في وضع صعب لا تُحسد عليه. وفي الواقع كان هذا الموقف من الأرثوذكس في بلغراد واضحاً من تصرفات محافظ المدينة وحتى في توجيهات الامبراطور النمساوي نفسه. ففي ١٧١٨ اتخذ مجلس المحافظة في المدينة قراراً بأن تكون بلغراد الدانوبية ـ التي أصبحت تسمى الآن الألمانية ـ خاصة بالسكان الذين يتكلمون الألمانية ويعتنقون الكاثوليكية. وكان هذا القرار حسب توجيهات الامبراطور النمساوي نفسه، الذي كان يهتم شخصياً بمدينة بلغراد، فمدينة بلغراد حسب توجيهات الامبراطور، هي «السور الأول للمسيحية ولذلك يجب أن تكون القومية الألمانية هي السائدة في كل عهد، سواء من حيث العدد أو من حيث وجودها في السلطة». وقد تأخر تطبيق هذا القرار حتى ١٧٢٦، حين تم ترحيل الأرثوذكس بقوة الدرك من بلغراد الدانوبية إلى بلغراد الساڤية، ومنذ هذه السنة أصبحت بلغراد الدانوبية بطابع ألماني وكاثوليكي تماماً. ومع هذا كان الأرثوذكس في الواقع يشكلون طائفة متماسكة في هذه الفترة، على

الرغم من تنوع الأصول الاتنية لهم (اليونان والصرب والسينسار والألبان والبلغار) أمام الضغط الكاثوليكي وساعدهم تمركزهم خلال هذه الفترة في بلغراد الساڤية.

وخلال هذه الفترة ١٧١٧ ـ ١٧٣٩ قامت الإدارة النمساوية بإعادة بناء القسم المرتفع والقسم المخفض من القلعة وشيدت سوراً محصناً يلتف حول المدينة من الدانوب إلىٰ الساڤا بحيث أصبح الدخول إلى المدينة يتم عبر البوابات فقط. وقد أدىٰ هدم الأحياء والبيوت الشرقية السابقة داخل المدينة وتشييد أحياء جديدة إلىٰ بروز المدينة بطابع غربي أوربي. وقد تعمق هذا الطابع علىٰ الأرض بقدوم المهاجرين من النمسا وألمانيا، الذين أصبحوا يشكلون غالبية السكان في المدينة. ومن بين هؤلاء جاء إلىٰ بلغراد الكثير من الحرفيين، الذين حملوا معهم الحرف الغربية التي لم تكن معروفة من قبل في المدينة والنمط الغربي في العمل، وهذا كان طبعاً على حساب الحرف الشرقية التي تلاشت خلال هذه الفترة في بلغراد الألمانية (الدانوبية) بينما استمرت بشكل ما في بلغراد الساڤية. وعلىٰ الرغم من هذه التطورات الكبيرة فقد بقي عدد السكان ينمو ببطء، بالمقارنة مع ما كانت عليه المدينة في العهد العثماني. ففي نهاية الحكم النمساوي وصل عدد السكان إلىٰ عشرة آلاف نسمة في ١٧٣٩، بينما كانت بلغراد قبل قرن من الزمن يعيش فيها حوالي مئة ألف.

عودة بلغراد إلىٰ الحكم العثماني (١٦٤٠ ـ ١٧٨٨):

في ربيع ١٧٣٦ أعلنت روسيا القيصرية الحرب علىٰ الامبراطورية العثمانية، وفي السنة اللاحقة ١٧٣٧ تم تجديد التحالف الروسي ـ النمساوي مما ألزم النمسا علىٰ التورط في الحرب. وقد تطورت الحرب بشكل مفاجىء، وخاصة مع هزيمة النمساويين في تموز ١٧٣٩ بالقرب من بلغراد، مما دفع النمساويين للتفاوض علىٰ صلح منفرد مع العثمانيين. وفي أيلول ١٧٣٩ تم التوصل إلىٰ «صلح بلغراد» الذي استردت بموجبه الامبراطورية العثمانية المناطق الواقعة جنوب الدانوب بما في ذلك مدينة بلغراد، وهكذا عادت بلغراد مرة ثانية إلىٰ الحكم العثماني.

وحسب «صلح بلغراد» كان علىٰ النمساويين أن يهدموا ما بنوه في بلغراد، باستثناء القلعة، خلال حكمهم للمدينة ١٧١٧ ـ ١٧٣٩. وقد قام النمساويون بتنفيذ ما التزموا به من شتاء ١٧٣٩ وحتىٰ تموز ١٨٤٠، حين تمّ تسليم المدينة للعثمانيين، وكان معظم السكان الكاثوليك (النمساويون، والألمان، والمجر، والأرمن، الخ) قد غادروا المدينة قبل تسليمها للعثمانيين ولم يبق في المدينة إلا قلة من السلوفينيين والبوسنويين مع الفرنسيسكان الذين غادروا المدينة بدورهم بعد عدة أسابيع. وخلال انسحابه من المدينة أخذ الجيش النمساوي معه بالقوة قسماً من السكان اليهود. وفي هذه الظروف، عندما تسلم العثمانيون المدينة في تموز ١٧٤٠، كانت بلغراد خالية من الكاثوليك بينما بقي فيها الأرثوذكس الذين صمدوا خلال الحكم النمساوي وبعض اليهود الذين نجوا من المصير الذي حل ببقية اليهود.

وخلال فترة قصيرة استردت بلغراد طابعها الشرقي الإسلامي الذي كانت تتميز به في السابق. فقد تدفق السكان المسلمون، الذين كانوا بغالبيتهم من البوسنويين والألبانيين، للإقامة في المدينة وأعادوا بناء البيوت علىٰ الطراز الشرقي. ومن ناحية أخرىٰ فقد شجع عودة بلغراد للحكم العثماني المسيحيين الأرثوذكس (من اليونانيين والصرب والسينسار إلخ) علىٰ القدوم ثانية إلىٰ المدينة حتىٰ أصبح عدد الأرثوذكس خلال هذه الفترة يوازي عدد المسلمين، إذ أن عدد السكان قفز خلال هذه الفترة إلى عشرين ألف تقريباً، أي ضعف ما كانت عليه بلغراد خلال الحكم النمساوي ١٧١٧ ـ ١٧٣٩.

في البداية جرىٰ استرداد الجوامع، التي كانت قد حولت إلىٰ كنائس أو مخازن وما شابه ذلك(١). وفي هذه الفترة تم إصلاح وتجديد عدد من

(١) هذه الجملة يسوقها بكل موضوعية الباحث اليوغسلافي ليوبومير نيكتش في دراسته عن جوامع بلغراد التي نشرت في منتصف الخمسينات. وما يثير هنا أن الطبعة الجديدة من «موسوعة يوغسلافيا»، الجزء الأول ص ٥٨٢، تأتي بعد ربع قرن لتذكر أنه بعد تسلم العثمانيين للمدينة «جرىٰ تحويل كل الكنائس، باستثناء واحدة أرثوذكسية، إلىٰ جوامع»، دون أن تشير إلىٰ أن هذه الكنائس كانت جوامع في الأصل وبالتالي فقد قامت الإدارة العثمانية بإعادتها إلىٰ ما =

الجوامع التي كانت قد أهملت أو تعرضت لأضرار حتىٰ أشرفت علىٰ الانهيار خلال الحكم النمساوي. ويلاحظ هنا أن غالبية هذه الجوامع القديمة قد اكتسبت الآن، بعد إصلاحها وتجديدها، أسماء جديدة. فجامع درغوت باشا القديم، في الناحية الشرقية من المقبرة الإسلامية، قام بتجديده الكزلار آغا بشير وأصبح يدعىٰ منذ هذه الفترة «جامع الأغادار السعادة» أو «جامع الكزلار آغا». وجامع بيرم بك القديم، شرق بوابة استنبول، قام بتجديده دفتردار الرومَلي الحاج مصطفىٰ أفندي عاطف زاده وقد بقي مختفظاً باسمه القديم مع أنه يذكر أحياناً باسم «جامع عاطف زاده». وفي هذا الاتجاه قام محافظ بلغراد علي باشا بتجديد جامعين في ١٧٤٠، أحدهما «جامع الشهادة» الذي أشار آليه أوليا شلبي خلال زيارته لبلغراد سنة ١٦٦٠. وقد ذُكر الجامع باسمه القديم لفترة أخرىٰ على حين أنه اشتهر فيما بعد باسم «جامع علي باشا» إلخ. وهكذا، إضافة إلى الجوامع الأخرى التي تم تجديـدها في تلك السنوات، تعتبر هذه الفترة غنية بالنسبة لتاريخ الجوامع في بلغراد.

ففي هذه الفترة تم بناء عدد لا بأس به من الجوامع الجديدة. ومن أشهر هذه الجوامع التي بنيت في هذه الفترة «جامع الفقراء» كما اشتهر لدىٰ عامة الشعب، والذي أنشىء قبل ١٧٥٨ علىٰ حساب مديرية المالية في المدينة. ومن أواخر الجوامع الجديدة التي بنيت كان جامع لازحاجي محمود الذي ورد ذكره لأول مرة سنة ١٧٨٧. وحسب ما ذكره كاتاميتش Katamié فقد وصل عدد الجوامع في العقد الثامن للقرن الثامن عشر، أي في نهاية هذه الفترة للحكم العثماني، إلىٰ خمسين جامعاً «كانت تمنح بلغراد منـظراً جميلاً للغاية». وإلىٰ جانب الجوامع فقد عادت للبروز مرة ثانية بعض التكايا خلال هذه الفترة. ففي بداية هذه الفترة أقيمت ثلاث تكايا، الأولىٰ للطريقـة البكتاشية، والثانية للخلوتية، والثالثة للسعدية. وقد ورد ذكر هذه التكايا في

= كانت عليه. ومع تركيز الموسوعة على هذه العبارة، التي تستثير القارىء بطبيعة الحال، كان لا بد لها أن تتجاوز دون أن تتعرض بكلمة واحدة إلى ما كان النمساويون قد فعلوه بجوامع المدينة بعد دخولهم إلى بلغراد سنة ١٧١٧.

وقفية أحمد أفندي، دفتردار بلغراد، الذي يبدو أنه كان من أتباع أحدىٰ هذه الطرق. فقد خصص حسب وقفيته (١٢) أقجة في اليوم لطعام الدراويش في التكية البكتاشية و (٣٠) أقجة في اليوم للدراويش في التكيتين الخلوتية والسعدية، كما خصص بيتين كبيرين أحدهما لشيوخ الطريقة الخلوتية والثاني للسعدية.

وبالإضافة إلىٰ هذا فقد عادت الروح إلىٰ بعض المنشآت الثقافية (الكتاتيب والمدارس المتوسطة والعالية والمكتبات). وفي الواقع لقد تمّ في هذه الفترة افتتاح أربع مدارس متوسطة وعالية. ومن أهم هذه المدارس كانت «مدرسة السلطان محمود» في إطار جامعه في القسم المرتفع من القلعة. وقد اشتمل الجامع علىٰ قسم خاص للمكتبة مع مشرف علىٰ الكتب براتب يومي قدره (١٥) أقجة. وقد وصل عدد طلاب هذه المدرسة في أواخر هذه الفترة إلىٰ حوالي ثلاثين طالباً. أما المدرسة الثانية، في القسم المنخفض من القلعة، فقد بناها الصدر الأعظم سعيد حسن باشا وكانت في إطار جامعه في نفس الموقع. وقد قام محافظ بلغراد خلال هذه الفترة أيضاً بتجديد مدرسة كانت معروفة في بلغراد، وجعلها تختص بالشريعة والقرآن وعين لها رجال الإفتاء لكي يقوموا بالتدريس فيها. وحوالي ١٧٥٠ قام رئيس أفندي حاجي مصطفى ببناء مدرسة رابعة في المدينة.

وخلال هذه الفترة ازدهرت أيضاً الحياة الاقتصادية والتجارية في المدينة. ويدل علىٰ هذا كثرة توافد المسيحيين الأرثوذكس، من اليونان وألبانيا ومكدونيا، الذين كان لهم دور كبير في التجارة بين المناطق العثمانية وغرب أوربا. وخلال هذه الفترة أصبح للألبانيين حضور أوضح في التجارة والحرف حتىٰ أنه لدينا في هذه السنوات سوق خاص يحمل اسم «سوق الأرناؤوط». ومع هذا التطور برزت محلات جديدة ذات طابع اثني، كما كانت عليه الحال في بلغراد قبل قرن، من هذه المحلات لدينا «محلة اليونانيين» و «محلة الأرناؤوط» و «محلة السينسار» و «محلة اليهود» إلخ.

بلغراد تحت الحكم النمساوي (١٧٨٩ ـ ١٧٩١):

في بداية ١٧٨٧ اندلعت الحرب مرة ثانية بين الامبراطورية العثمانية وروسيا القيصرية، واشتركت النمسا فيما بعد في هذه الحرب استناداً إلى المعاهدة الروسية ـ النمساوية ضد الامبراطورية العثمانية. وهكذا، في بداية أيلول ١٧٨٩، توجه جيش نمساوي يتألف من حوالي خمسين ألف جندي لحصار بلغراد. وقد بدأ هذا الحصار في العاشر من أيلول وفي نهايته قام الجيش النمساوي بقصف عنيف للمدينـة علىٰ مدار الليـل والنهار حتىٰ اضطرت حامية المدينة للاستسلام في ٩ تشرين الأول بعد أن تم التوصل إلىٰ اتفاق خاص. وحسب هذا الاتفاق سمح النمساويون بحرية الخروج للجنود والسكان المسلمين، الذين بقوا علىٰ قيد الحياة، مع ثروتهم غير المنقولة. وفعلاً غادر المدينة (١١١٥٤) شخص، منهم (٥٩٧١) من الجنود والبقية من السكان المدنيين. وفي الواقع كان القصف النمساوي العنيف للمدينة قد أدىٰ إلى خراب قسم كبير من المدينة، حتىٰ أن بلغراد كانت عبارة عن مدينة قائمة على الأنقاض تقريباً عندما دخلها الجيش النمساوي. وكان من الطبيعي، نتيجة للحصار والقصف العنيف، أن يتعرض قسم كبير من الجوامع إلىٰ الإندثار. ففي مخطط المدينة الذي وصفه النمساويون فور دخولهم لبلغراد تبدو مواقع (١٥) جامعاً فقط، بعد أن كان عدد الجوامع قد وصل إلى الخمسين قبل الحصار.

وكالعادة فقد اهتم الامبراطور النمساوي شخصياً بمصير بلغراد وأراد أن يتم توطينها بأقصىٰ سرعة بـ «السكان المفيدين». وقد تقدم الكثيرون من ألمانيا والتشيك، ومنهم من كان من أحفاد سكان بلغراد خلال ١٧١٧ ـ ١٧٣٩، للهجرة والإقامة في بلغراد. وإلىٰ جانب هؤلاء تقدم للهجرة والإقامة في بلغراد عدد من التجار والحرفيين. ويبدو أن قسماً من اليهود، الذين غادروا بلغراد سنة ١٧٣٩، قد عادوا للإقامة فيها ثانية. وفي أواخر ١٧٨٩، أي بعد شهرين من السيطرة علىٰ المدينة، قامت الإدارة النمساوية بمناسبة ليلة عيد الميلاد بتحويل أحد الجوامع إلىٰ كنيسة. وبالمقارنة مع الحكم

النمساوي السابق لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩، لم تتشجع الجماعات الكاثوليكية علىٰ القدوم إلىٰ المدينة هذه المرة وذلك لعدم استقرار الوضع العسكري علىٰ الجبهة وعدم الثقة باستمرار الحكم النمساوي في بلغراد كما في السابق. وفي الواقع لم يأت هذه المرة من الجماعات الكاثوليكية إلا الفرنسيسكان، الذين حصلوا من الإدارة النمساوية علىٰ جامع لتحويله إلىٰ كنيسة.

في هذه الظروف كانت النمسا غير متحمسة للحرب مع العثمانيين لانشغال البلاط بالاضطرابات الداخلية، ولذلك فضّلت النمسا الدخول في مفاوضات للانسحاب من طرف واحد من الحرب. وفي غضون هذا، حين شعر السكان في المدينة برغبة النمسا في الانسحاب من الحرب وما يعنيه هذا من عودة المدينة إلىٰ العثمانيين، أخذ هؤلاء في مغادرة المدينة بسرعة. وهكذا في ١٨ تموز ١٧٩١ بدأت المفاوضات بين العثمانيين والنمساويين وتم التوصل إلى اتفاق ينص على انسحاب النمساويين من المدينة في ٤ آب ١٧٩١. واستناداً إلىٰ هذا الاتفاق قام العثمانيون باستلام المدينة في ١٢ تشرين الأول ١٧٩١.

عودة بلغراد إلىٰ الحكم العثماني (١٧٩١ ـ ١٨٠٦):

تميزت هذه الفترة في حياة الامبراطورية العثمانية ببروز السلطان المصلح سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) الذي أراد انتشال الامبراطورية من المأزق الذي وقعت فيه وذلك بتحديث الجيش وأجهزة الدولة والاهتمام بوضع المسيحيين لكي يرتبطوا بالولاء للدولة العثمانية وذلك للتخلص من تدخل القوىٰ الأوربية وتوسعها علىٰ حساب الامبراطورية العثمانية بحجة وضع المسيحيين فيها. وقد أراد السلطان تطبيق أفكاره الثورية أولاً في باشوية بلغراد علىٰ سبيل التجربة، وللاستفادة من هذه التجربة في تعميم الإصلاحات في بقية المناطق. وفي الواقع كانت باشوية بلغراد تجمع بين المسلمين (وغالبتهم من السلاف الجنوبيين والألبانيين مع أقلية تركية ضئيلة) الذين يتمركزون غالباً في المدن والأرثوذكس (وغالبيتهم من الصرب) الذين

كانوا ينتشرون في الريف وفي المدن الداخلية. وقد اختار السلطان هذه الباشوية بعناية لأنها تواجه أوربا وأراد أن تكون مثلاً نموذجياً ليقطع الطريق علىٰ تدخل الدول الأوربية. ولتنفيذ الإصلاحات الجديدة أرسل السلطان حاجي مصطفىٰ باشا ليتولىٰ باشوية بلغراد، وكان هـذا بدوره من أكبـر المتحمسين للإصلاحات التي كانت تدور في رأس السلطان. وقد أصدر السلطان خلال ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤ عدة فرمانات أكّدت علىٰ الحرية الدينية الكاملة للمسيحيين وعلىٰ حرية التنقل والتجارة داخل الباشوية، وفي مقابل هذا أصبح في وسع المسيحيين أن يدفعوا الجزية علىٰ أقساط وأن يقوموا بأنفسهم بجمعها للتخلص من تجاوزات ومضايقات الموظفين. والأهم من هذا أن هذه الفرمانات نصّت أيضاً علىٰ منع الانكشاريين من الدخول إلىٰ أراضي ومدن هذه الباشوية. ومن المعروف أن همّ السلطان في طموحه للإصلاحات كان ينحصر في التخلص من المؤسسة الانكشارية وإنشاء جيش حديث عوضاً عنها.

قام الوالي حاجي مصطفىٰ باشا بتطبيق هذه الإصلاحات بكل حماس، وسمح للمسيحيين بإصلاح كنائسهم وتركيب ما يشاؤون من الأجراس عليها إلخ. وقد انتعش وضع المسيحيين بسرعة، إذا أصبحوا يتمتعون بمساواة كاملة ويعملون بحرية كاملة وأصبحت التزاماتهم محدّدة بدقة ويتم دفعها بالتقسيط ودون أي تجاوز. وبالفعل لقد نجحت هذه التجربة، كما أراد لها السلطان، وأصبح وضع المسيحيين الأرثوذكس أفضل من وضعهم في أية دولة مجاورة، حتىٰ إن هذا الوضع شجع الصربيّين الذين كانوا يسكنون في جنوب الامبراطورية النمساوية علىٰ الهجرة والإقامة في باشوية بلغراد.

وكان من الطبيعي في هذه الظروف ألا ينسجم الانكشاريون مع هذه الاصلاحات لأنهم وجدوا أنفسهم علىٰ الهامش. وكان الانكشاريون، الذين غادروا باشوية بلغراد نتيجة لتطبيق الاصلاحات، قد لجأوا إلىٰ والي فيدين Vidin المجاورة عثمان باشا، الذي كان من المعارضين لهذه الاصلاحات.

وبدعم من هذا الباشا قام الانكشاريون بعدة محاولات للاستيلاء علىٰ بلغراد بقوة السلاح، وقادوا تحت زعامة عثمان باشا تمرداً مكشوفاً ضد السلطان وإصلاحاته. وفيما بعد، مع احتلال نابليون بونابرت لمصر، أصبح السلطان في وضع حرج وأراد لذلك تهدئة الانكشاريين لتأمين حدوده مع النمسا للتفرغ إلىٰ ما حدث في مصر. وفي الواقع لقد استسلم السلطان لعثمان باشا ووافق علىٰ عودة الانكشاريين إلىٰ بلغراد في كانون الثاني ١٧٩٩. وكان الوالي حاجي مصطفىٰ باشا قد عاد إلىٰ بلغراد بسرعة في أواخر ١٧٩٨ لتدارك الوضع. ولكن، في أيار ١٧٩٩، دخل الانكشاريون إلىٰ بلغراد كالفاتحين. وفي الواقع أصبح الانكشاريون أسياد الموقف وتحول الوالي مصطفىٰ باشا إلىٰ أسير بين أيديهم، وقاموا أخيراً بقتله في ٢٧ كانون الأول ١٨٠٢.

وعاد الانكشاريون للحكم بعقليتهم القديمة متجاوزين الاصلاحات التي تمت والتأثيرات العميقة التي أحدثتها في المجتمع الصربي داخل الباشوية. فنتيجة للاصلاحات، وبالتحديد لحرية التجارة، حدث فرز عميق في المجتمع الصربي أدىٰ إلىٰ بروز فئة من التجار الكبار، الذين أثروا بشكل سريع من تجارة المواشي مع النمسا، وبالتالي أصبحوا يتمتعون بتأثير كبير علىٰ الجماهير الصربية من مركزهم الجديد. وكان هؤلاء قد اعتمدوا بشكل خاص علىٰ تصدير الخنازير والغنم والماعز والجلد والصوف إلخ إلى النمسا، حتى وصل قيمة ما تم تصديره إلىٰ النمسا في نهاية القرن الثامن عشر إلىٰ ثلاثة ملايين فرنك في السنة. ومن هنا كانت عودة الانكشاريين للحكم، كمعارضين للاصلاحات التي تمت في الباشوية، تمثل تهديداً لمصالح التجار الصربيين الكبار ولدورهم القيادي الجديد. كانت هذه هي الأرضية التي قادت إلىٰ «الانتفاضة الصربية الأولىٰ» سنة ١٨٠٤. ويبدو هذا بوضوح في رسالة أحد التجار الكبار وأحد أبرز الزعماء اللاحقين إلىٰ قائد الانتفاضة كارا جورج حيث يوضح فيها ما يدفعه للمشاركة في الانتفاضة: «علي أن أدفع الآن ليرة ذهبية في كل مكان أعبر فيه بخنازيري...». وإلى جانب هذا انتشرت في هذه الفترة عملية الاستيلاء علىٰ الأرض وتحويلها إلى ملكيات

خاصة، بما في ذلك إلزام الفلاحين على العمل فيها، إلى توتر الوضع في الريف ضد الانكشاريين. وفي هذه الظروف وقعت في يد زعماء الانكشاريين رسالة من أحد الزعماء الصربيين إلىٰ النمسا يطلب فيها السلاح والعتاد للقيام بالانتفاضة في الباشوية. وبعد اكتشاف هذه الرسالة لجأ الانكشاريون إلى قتل حوالي سبعين من أعيان المجتمع الصربي في كانون الثاني ١٨٠٤، إلا أن هذا أدىٰ بدوره إلىٰ انفجار الانتفاضة في شباط ١٨٠٤. وفي الواقع لقد بقيت بلغراد مركز الباشوية خارج هذه الانتفاضة حتى ١٨٠٦.

في بداية هذه الفترة ١٧٩١ ـ ١٨٠٦ ازدهرت بلغراد نتيجة للإصلاحات التي طبقت في الباشوية والتي أدت إلى انتعاش التجارة بشكل خاص. وفي إطار هذا الازدهار نهضت المدينة ثانية بعد أن تم ترميم وتجديد ما خلّفه القصف النمساوي العنيف خلال حصار ١٧٨٩. وحول هذا لدينا ما يشير إلىٰ أن الجوامع «التي كانت متضرّرة» بسبب القصف قد «تم إصلاحها فيما بعد». وفيما عدا هذا لا نملك معطيات وافية عن وضع الجوامع وبقية المنشآت الحضارية في المدينة خلال هذه الفترة. وللأسف فإن هذا الازدهار لم يستمر طويلاً بسبب الكوارث التي أصابت بلغراد في هذه الفترة نتيجة لانتشار الطاعون.

كان الطاعون قد بدأ في الانتشار في باشوية بلغراد خلال سنة ١٧٩٤ وغطّىٰ بلغراد بشكل خاص حيث شمل المسلمين أكثر من غيرهم. ففي شهر حزيران كان يموت يومياً من المسلمين ١٦ ـ ١٧ شخصاً، بينما ارتفع عدد الضحايا في شهر تموز إلى ٥٠ ـ ٦٠ مسلماً في اليوم بالإضافة إلى ١٥ ـ ٣٠ من الصرب واليهود. وهناك ما يشير إلى أن ضحايا الطاعون حتى نهاية آب وصلت إلى خمسة آلاف. وقد عاد الطاعون للانتشار في المدينة في شهر شباط ١٧٩٦. وفي ذلك الحين كان الطاعون يلتهم يومياً ٢٠ ـ ٣٠ شخصاً وبقي يتساقط كل يوم ١٠ ـ ١٢ شخصاً حتىٰ شهر آب. ونتيجة لهذه الكارثة هرب غالبية السكان من بلغراد وأصبحت المدينة خالية تقريباً من الناس. وقد

استمر الطاعون حتىٰ ربيع ١٧٩٨، وفي حزيران كان يموت يومياً ١٥ ـ ٢٠ شخصاً. في تلك الأيام كانت الضحايا تحرق في الطرقات وتبقىٰ في العراء دون دفن. ومع أن عدد السكان أصبح قليلاً فقد كان يموت يومياً ٩ ـ ١٠ أشخاص خلال شهر آب.

في هذه الظروف عاد الانكشاريون إلىٰ بلغراد بعد أن رحل الطاعون عنها. ومع أن الخوف من الانكشاريين دفع بعض المسيحيين وخاصة من التجار إلىٰ مغادرة المدينة، إلا أن المدينة تضخمت بعدد السكان وخاصة بعد اندلاع الإنتفاضة الصربية في بداية ١٨٠٤ داخل الباشوية، حيث لجأ إلىٰ بلغراد عدد كبير من المسلمين طلباً للحماية. ومع هؤلاء وصل عدد السكان في المدينة إلى حوالي عشرة آلاف في ١٨٠٦.

بلغراد تحت الحكم الصربي (١٨٠٦ ـ ١٨١٣):

بقيت الانتفاضة الصربية بطابع محلي داخل الباشوية في انتظار نتائج الاتصالات مع الباب العالي. وفي ١٨٠٥ جاء الوزير بشير باشا ووافق علىٰ إحياء الإصلاحات التي طبقت في الباشوية في عهد مصطفىٰ باشا، إلا أن زعماء الانتفاضة أصروا علىٰ ضمان إحدىٰ القوىٰ الخارجية لهذه الإصلاحات مما أدىٰ إلىٰ فشل الاتصالات. ويبدو أن الباب العالي قد استهان بهذه الانتفاضة. فأمر وزير نيش حافظ باشا في ١٨٠٥ ووزير البوسنة بشير باشا في ١٨٠٦ بالتوجه إلىٰ الباشوية لحل الموقف عسكرياً، إلا أن هذا الأسلوب انتهىٰ إلىٰ الفشل وردّ زعماء الانتفاضة علىٰ ذلك بالهجوم علىٰ بقية المدن في الباشوية ولمّوا شملهم أخيراً للسيطرة علىٰ بلغراد في خريف ١٨٠٦.

كانت الانتفاضة قد اكتسبت الآن طابعاً دموياً ضد العثمانيين وروحاً استردادية ضد المسلمين بشكل عام، مما دفع من بقي حياً من المسلمين إلىٰ الالتجاء إلىٰ بلغراد. وفي ٢٩ تشرين الثاني وصلت قوات الانتفاضة، التي كانت تتألف من ٢٥١، ألف رجل و (٤٠) مدفعاً، إلى ضواحي بلغراد وقامت بالهجوم ليلاً علىٰ المدينة. وعلىٰ أصوات الرصاص والقنابل نهض السكان

من نومهم وسارعوا للالتجاء إلى القلعة، حيث تمكن القسم الأكبر من الوصول سالماً. وتشير بعض المصادر إلى أنه بقي في المدينة حوالي ١٢٠٠ شخص، وأغلبهم من الأطفال، الذين شلّتهم المفاجأة. وفي صباح الأول من كانون الأول كانت المدينة قد أصبحت في قبضة الثوار، وفي الثاني من كانون الأول كانت في شوارع المدينة جثث ٢٤٠ مسلماً ويهودياً. كان المسلمون، الذين لم يتمكنوا من الوصول إلىٰ القلعة، قد لجأوا مع عائلاتهم إلى الجوامع للاحتماء فيها والدفاع عن أنفسهم. وقد أدىٰ هذا إلىٰ أن تدور بعض المعارك حول بعض الجوامع لتصفية مقاومة المسلمين فيها، مما أدىٰ إلى تعرض هذه الجوامع لأضرار بليغة.

وفي الواقع قام الثوار بالانتقام من السكان المسلمين، وبشكل خاص من المسلمات، بشكل لا يوصف. وحول هذا يصف لنا شاهد عيان من مؤرخي الانتفاضة كيف أن «الجنود الذين لا يعرفون ما الرحمة وما الإنسانية قاموا بتعرية حشد من النساء المسلمات» وبقين علىٰ هذه الحالة وسط السخرية إلى أن دخل زعيم الانتفاضة كاراجورج المدينة فـ «أشفق عليهن وخصّص لهن جامعين للإقامة». وإلى جانب هذا فقد أمر كارا جورج بجمع من بقي حياً من السكان المسلمين في عدة جوامع، حيث وضعوا تحت الحراسة ومنع عنهم الطعام.

بعد السيطرة علىٰ المدينة قام الثوار بتشديد الحصار علىٰ القلعة، التي كانت مليئة بالنساء والأطفال. وقد استمر حصار القلعة حوالي ثلاثة شهور حتى أنه لم يبق فيها أخيراً للأكل إلا الحجارة. كان الحصار لا يحتمل، فقد كان يموت يومياً الكثير من النساء والأطفال بسبب المجاعة، مما دفع البعض إلى الخروج من القلعة والاستسلام للثوار في المدينة. وقد اعترف فيما بعد وزير بلغراد سليمان باشا، الذي كان محاصراً في القلعة، بأن القلعة لم يعد فيها ما يُؤكل في الأيام العشرة الأخيرة للحصار. وفي هذه الظروف استسلم سليمان باشا وطلب التفاوض مع الثوار، وبعد المباحثات سمح له الثوار

بالخروج من القلعة ومن بلغراد مع عدد محدود من الأشخاص. وهكذا، في ٢٣ شباط ١٨٠٧، خرج سليمان باشا مع ٥٠ ـ ٦٠ شخصاً من القلعة، وأصبحت بلغراد مع كل سكانها المسلمين تحت سيطرة الثوار.

بعد السيطرة علىٰ القلعة قام الثوار بإعادة تجميع كل السكان المسلمين في المدينة لتنصيرهم بالقوة. وتشير هنا المصادر إلى أنه تم في تلك الأيام تنصير حوالي ستة آلاف من المسلمين وحتىٰ بضع مئات من اليهود. ومع ذلك لدينا ما يفيد بأنه قد بقيت في المدينة «أقلية صغيرة» من المسلمين الذين استمروا في الحياة خلال هذه الفترة في «فقر مدقع حتىٰ أن المرء يسيطر عليه الحزن حين يشاهد وجوه هؤلاء ا لناس». وفي هذه الظروف جاء أيضاً دور الجوامع في المدينة. ويروىٰ كامينسكي Kamenski الذي عاصر هذه الأحداث أن قسماً من الحوامع حُوّل إلىٰ زرائب للخنازير بينما تم تحويل القسم الآخر إلىٰ بقاليات. ويبدو أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً لأن الكاتب ذاته يسجل في ١٨٠٨ أن جوامع بلغراد «قد أخليت» باستثناء جامع واحد حيث «يمكن للأتراك أن يؤدوا شعائرهم»، وهذا ما يؤكد ما أشرنا إليه سابقاً من استمرار وجود «أقلية صغيرة» من المسلمين خلال هذه الفترة. وفي الواقع لا تتوفر لدينا المعطيات الكافية حول مصير الجوامع التي «أُخليت». ومع ذلك نعرف علىٰ الأقل أن أحد هذه الجوامع في السوق الكبير قد تم تحويله إلىٰ كنيسة للأرثوذكس دون أن يتعرض لأي تعديل باستثناء وضع جرس كبير في قمة المئْذَنة.

كان من الطبيعي مع هذه التطورات أن يتغيّر تركيب السكان بشكل جذري خلال هذه الفترة. فمع السيطرة علىٰ بلغراد في ١٨٠٦، وما صاحب ذلك من أحداث، غادر المدينة معظم المسيحيين الأرثوذكس من اليونانيين والسينسار وقلة من المسلمين وعبروا الدانوب إلىٰ مدينة زيمون Zemun، التي كانت تواجه بلغراد من جانب النمسا. وخلال المعارك للسيطرة علىٰ المدينة تعرض اليهود لاضطهاد مركز فنهبت أملاكهم وتم نهب كنيسهم فهرب

قسم منهم إلىٰ زيمون أيضاً بينما تعرض القسم الآخر للتنصير. في هذه الظروف أصبحت بلغراد لأول مرة مدينة يتألف سكانها من طائفة واحدة ـ من المسيحيين الأرثوذكس. وفي الواقع إن هذه الروح الاستردادية الأرثوذكسية كانت تنبع أيضاً من تأثير روسيا القيصرية، التي كانت قد بدأت منذ عهد بطرس حربها الاستردادية الأرثوذكسية لبعث «القسطنطية» من جديد. وفي هذا الاتجاه، بعد أن أرغمت الباب العالي علىٰ الاعتراف بها كحامية للمسيحيين الأرثوذكس، ركزت روسيا القيصرية علىٰ تحريض مسيحيي البلقان ضد الحكم العثماني لا لتحقيق استقلالهم بل لكي ترث هي الحكم العثماني، علىٰ حد تعبير انغلن، ولكي تحكم هؤلاء المسيحيين «علىٰ الطريقة الروسية». وهكذا، بعد أن استقر الوضع في بلغراد علىٰ ذلك النحو، قام متروبوليت بلغراد في ٣ تشرين الثاني ١٨٠٧ بإبلاغ الشعب الصربي المحتشد في الكنيسة: «من اليوم أصبح جلالة الامبراطور الكسندر الأول امبراطورنا». وقد كرّر المتروبوليت هذا ثلاث مرات وكان الشعب في كل مرة يردّد هاتفاً «يعيش امبراطورنا القيصر!».

عودة بلغراد إلى الحكم العثماني (١٨١٣ ـ ١٨٦٢):

صادف نشوب الانتفاضة الصربية والسيطرة على بلغراد ١٨٠٦ توتر الوضع واندلاع الحرب بين القوىٰ الكبرىٰ في أوربا. ففي ١٨٠٦ كان نابليون بونابرت قد بدأ حربه ضد روسيا وبروسيا، وفي هذه الظروف اندلعت الحرب أيضاً بين الامبراطورية العثمانية روسيا القيصرية. ولكي يتفرغ للحرب مع روسيا أراد الباب العالي تحييد قوات الانتفاضة الصربية، علىٰ الرغم مما كان قد حدث في بلغراد، ووافق في بداية ١٨٠٧ علىٰ منح باشوية بلغراد نوعاً من الحكم الذاتي. ومع هذا فقد استجاب زعماء الانتفاضة للنداء الروسي بالمشاركة مع الجيش الروسي، الذي كان قد هبط إلىٰ الدانوب، في العمليات العسكرية ضد العثمانيين. وبالفعل فقد انضمت قوات الانتفاضة الصربية إلىٰ الجيش الروسي في ١٨٠٧ وهزموا القوات العثمانية في معركتين. وعلىٰ الرغم من الصلح العثماني ـ الروسي في ١٨٠٧ فقد أرسلت

روسيا عدة ألاف من قواتها لمساعدة قوات الانتفاضة خلال ١٨٠٨، وهكذا تمكنت القوات الصربية ـ الروسية من إيقاع الهزيمة بالعثمانيين في موقعتين جديدتين. وبعد هزيمة العثمانيين الكبيرة أمام الروس في ١٨١١ تم التوصل إلى صلح جديد في بوخارست ١٨١٢. وقد نصّ «صلح بوخارست» ١٨١٢، في البند الثامن، علىٰ قيام الجانب العثماني بالعفو عن الصربيين ومنحهم حكماً ذاتياً وتحديد جزية معقولة يقوم الصربيون أنفسهم بجمعها. وفي الواقع كان هذا البند الثامن غير دقيق، بحيث يحتمل أكثر من تفسير، ولذلك رفضه زعماء الانتفاضة. وخلال ١٨١٣ استغل العثمانيون تورط روسيا في الحرب مع بونابرت وتمكنوا من إيقاع الهزيمة بقوات الانتفاضة والسيطرة ثانية علىٰ الوضع في باشوية بلغراد في صيف ١٨١٣.

كان لتأثير الانتصارات العثمانية الأولىٰ وقع خاص على بلغراد. وحين انتشر في بلغراد خبر هرب زعيم الانتفاضة كارا جورج إلىٰ روسيا دب الذعر في المدينة وبدأ الصربيون في مغادرة المدينة خوفاً من انتقام العثمانيين لما حصل في بلغراد في ١٨٠٦. وهكذا غادر المدينة كل الصربيين تقريباً قبل دخول العثمانيين إلىٰ بلغراد، التي وجدوها خالية تقريباً(١).

بعد السيطرة على بلغراد والباشوية قام العثمانيون بجمع السلاح من الصربيين في الأرياف مما أدىٰ إلى محاولة جديدة للانتفاضة في خريف ١٨١٤، إلا أن هذه المحاولة بقيت معزولة في منطقة تشاتشاك. وحين عهد العثمانيون إلىٰ قتل بعض زعماء هذه المحاولة اندلعت الانتفاضة الصربية الثانية بزعامة ميلوش أوبرنوفيتش Milo$\hat{s}$ Obrenovié في نيسان ١٨١٥. إلا

(١) هكذا يصف حالة المدينة المؤرخ الصربي المعروف د. دوشان بوبوفيتش في كتابه الموسوعي «بلغراد عبر القرون» ص ٣٢٦، حيث يؤكد أن «كل السكان تقريباً قد غادروا بلغراد». ويحتار المرء فعلاً في تفسير ما تذكره «موسوعة يوغسلافيا»، الجزء الأول ص ٥٨٢، عن الوضع المريع في المدينة بعد دخول العثمانيين إليها. ففي هذه الموسوعة نقرأ بأن «المدينة كانت مليئة بجثث الصربيين، بينما تمّ بيع النساء والأطفال كعبيد في أسواق بلغراد»! ويكفي هنا أن نشير إلى أن هذه الموسوعة لا تشير بكلمة واحدة إلى ما حدث سابقاً للمسلمين في بلغراد خلال ١٨٠٦ ـ ١٨٠٧.

أن هذه الانتفاضة، بعد عدة مناوشات مع العثمانيين، لم تأخذ حجم الانتفاضة الأولىٰ وانتهت أخيراً إلى اتفاق يعود الفضل فيه إلىٰ اعتدال وزير بلغراد الجديد علي مرعشلي وزعيم الانتفاضة ميلوش. وفي الواقع كان هذا الاتفاق يقوم علىٰ قاعدة إصلاحات ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤ مع بعض الإضافات. فقد نص الاتفاق أن يقوم الأعيان الصربيون بجمع الجزية من الشعب الصربي وأن يكون للصربيين محاكمهم الخاصة، وأن يتشكل مكتب في بلغراد يتألف من (١٢) من الأعيان الصربيين لمتابعة الوضع في الباشوية مع الإدارة العثمانية، والأهم من هذا اعتراف الجانب العثماني بميلوش كـ «أمير علىٰ صربيا». وقد تأكدت هذه الاتفاقية بعدة فرمانات صادرة عن السلطان في شباط ١٨١٦، وقد شملت الاتفاقية هذه العفو عن الصربيين لما جرى في الماضي وتسهيل دفع الجزية بتقسيطها على دفعتين في السنة إلخ.

كان هذا العهد العثماني يتميز في فترته الأولى ١٨١٣ ـ ١٨٣٠ باسترداد بلغراد لطابعها الشرقي الإسلامي. وفي الواقع كان الأمير ميلوش قد اتخذ من مدينة كراغويفتس Kragujevac مقراً له، وامتص من هناك صلاحيات «المكتب الشعبي» (مكتب أعيان الصرب) في بلغراد حتىٰ إن هذا المكتب أصبح لا يتعاطىٰ إلا الفصل في الجنايات المحلية، وتحول أخيراً إلىٰ مجرد مكتب شخصي للأمير ميلوش بعد تشكيل «محكمة بلغراد» سنة ١٨٢٦. وفي هذه الفترة الأولىٰ ١٨١٣ ـ ١٨٣٠ عادت بلغراد إلىٰ التطور بشكل سريع كمدينة شرقية بغالبية إسلامية، إذ أن عدد السكان قد قفز خلال تلك السنوات من ٢٥ ـ ٣٠ ألف نسمة. ففي هذه الفترة وصل عدد البيوت في بلغراد إلى ثلاثة آلاف وكانت كلها تقريباً للمسلمين، بينما كانت فقط أقلية من التجار المسيحيين تملك بيوتاً خاصة بها. ومن هذه كان هناك حوالي ألف بيت يسكنها المسيحيون كمستأجرين. وفي الواقع كان عدد بيوت المسيحيين بعد ١٨١٥ يصل إلىٰ (١٢٠) بيتاً، بينما ارتفع عددها إلى (٥٠) بيت في سنة ١٨٢٠. وفيما يتعلق بالجوامع في هذه الفترة لدينا معطيات

مختلفة ولكن يمكن القول أن عددها في تلك السنوات وصل إلىٰ (٣٠) جامعاً.

خلال هذه الفترة ١٨١٣ ـ ١٨٣٠ كان سكان المدينة يتألفون من الطوائف الدينية الثلاثة: المسلمون والمسيحيون والأرثوذكس. كانت غالبية المسلمين من السلاف الجنوبيين، وخاصة من البوسنة والهرسك، الذين يرتبطون بأصول اتنية مشتركة مع الصربيين. وبعد هؤلاء، من حيث العدد، كان يأتي الألبانيون. أما الأتراك فقد كانوا يشكلون أقلية فقط وسط المسلمين، وكان هؤلاء الأتراك يتميزون من الناحية الانتربولوجية والاتنوبسيكولوجية عن بقية المسلمين. وهذا التمييز القومي بين المسلمين له أهميته الكبيرة بالنسبة للحوادث اللاحقة لأنه يدلّ علىٰ أن الأتراك كانوا أقلية متميزة وسط المسلمين، وهذا يعني أن قضية التتريك كانت غير واردة وبالتالي فإن التشديد على تسمية كل المسلمين بـ «الأتراك» لتبرير طردهم من بلغراد ومن كل الباشوية لا يقوم علىٰ أساس صحيح. وإلىٰ جانب المسلمين، الذين كانوا يشكلون غالبية السكان في هذه الفترة، كان المسيحيون الأرثوذكس يتألفون من الناحية الاتنية من الصربيين والسينسار أساساً. ومع أنه لا توجد روابط اتنية بين هاتين المجموعتين فقد تعرض السينسار للذوبان الاتني في المجموعة الصربية إلىٰ نهاية هذه الفترة حتىٰ إنهم تلاشوا فيما بعد كمجموعة اتنية في بلغراد. وإلى جانب المسلمين والمسيحيين كان اليهود يشكلون خلال هذه الفترة أقلية صغيرة من عدة مئات فقط، ولكنهم مع ذلك كان لهم محلتهم الخاصة حول كنيسهم في المدينة.

وقد شهدت هذه الفترة استقرار العلاقات بين الطوائف، وخاصة بين المسيحيين والإدارة العثمانية نتيجة للتوزيع الدقيق للحقوق والواجبات بين الطرفين. فقد كانت الجزية محدّدة بدقة، ٦ قروش علىٰ كل ذكر مسيحي بين ٧ ـ ٨٠ سنة، ويقوم بجمعها الأعيان الصرب ويقدّمونها بدورهم للأمير ميلوش لكي يسلّمها للإدارة العثمانية. إلا أن الأمير ميلوش قام في ١٨٢٦

بالتزام دفع الجزية عن كل المسيحيين في الباشوية بمبلغ (٢٤٥) ألف قرش، ولكنه جمع في السنة التالية مبلغ (٤٧٠) ألف قرش باسم هذا الالتزام وحوّل الفرق إلى خزينته الخاصة، أي حوالي ربع مليون قرش. ومن ناحية أخرىٰ أصبحت حقوق أصحاب الأراضي الكبيرة من المسلمين والتزامات الفلاحين الصربيين محدّدة بدقة ولا يمكن التلاعب بها. فقد كان أصحاب الأراضي يحصلون علىٰ عشر الانتاج بشكل عيني إضافة إلىٰ عائدات الانتاج بشكل نقدي وحسب اتفاق المشاركة بين أصحاب الأراضي والفلاحين. وفي الواقع انسحب معظم أصحاب الأراضي من الريف خلال هذه الفترة وانتقلوا للإقامة في المدن، وخاصة في بلغراد، تجاوزاً لأي احتكاك بين الطرفين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدد أصحاب الأراضي الكبيرة من المسلمين كان يقارب الألف.

خلال هذه الفترة كان الأمير ميلوش، بعد اعتراف الباب العالي به كأمير علىٰ الأعيان الصرب، يخطّط ويعمل بهدوء من مقره في مدينة كراغويفتس للسيطرة علىٰ بلغراد بشكل تدريجي ليجعل منها عاصمة لإمارته ودولته القادمة التي كان يحلم بها. وفي هذا الاتجاه دفع الأمير الصربيين للانتقال إلىٰ بلغراد وتشييد أحياء جديدة لهم لكي يصبح لهم وجود في المدينة. وهكذا خلال ١٨١٥ - ١٨٢٠ ارتفع عدد بيوت الصربيين في بلغراد حوالي خمسة أضعاف. وفي نهاية هذه الفترة، بعد أن وطّد سلطته علىٰ أعيان الصرب، نشط الأمير ميلوش للحصول من الباب العالي على «خط شريف» يمنحه وضعاً شرعياً كأمير أصيل على رأس إمارة وراثية. وفي الواقع كان الأمير ميلوش خبيراً بمداخلات الباب العالي ودور الرشوة في الحصول علىٰ ما يريده. وخلال هذه المساعي التي كان يبذلها عبر ممثليه في استنبول كان الأمير يلحّ بشكل خاص على تأمين سيطرته علىٰ بلغراد، التي كان يعتبرها قضية مصيرية، ليجعل منها عاصمة له. وفي هذا الصدد فقد أوصىٰ ممثليه ألا يبخلوا بالرشوة علىٰ الوزير وحتىٰ علىٰ السلطان نفسه في سبيل بلغراد: «لا توفروا شيئاً مع أولئك الذين يملكون القرار بل أضيفوا لهم مليون قرش إلى

جانب ما تمّ وعدهم به، وأما السلطان فليتم وعده بـ ٢٠٠ ألف قرش بل وأكثر. . .». وبالإضافة إلىٰ اهتمامه ببلغراد فقد ركّز الأمير ميلوش مساعيه لإصدار «خط شريف» حول قضية حيوية جداً، ألا وهي مصير المسلمين في الباشوية. فقد شدّد الأمير علىٰ أن يتضمّن «الخط الشريف» بأي ثمن منع المسلمين من الإقامة في الباشوية، مع أن غالبية هؤلاء من السلاف الذي يرتبطون اتنياً بالصربيين. وبالفعل فقد أصدر السلطان أخيراً «خطاً شريفاً» في ١٨٣٠ تضمن أموراً كثيرة علىٰ جانب كبير من الأهمية.

فقد اعترف هذا «الخط الشريف» بالأمير ميلوش كـ «باش أمير» مع حق الوراثة في عائلته، كما اعترف له بحق تسيير الأمور الداخلية في الباشوية ـ الإمارة بالتفاهم مع مجلس لأعيان الصرب وأقرّ له تشكيل قوة لحفظ الأمن. ومقابل هذا يلتزم الأمير بدفع جزية سنوية يتفق عليها بدقة وتشمل عائدات أصحاب الأراضي الكبيرة من المسلمين. ومن ناحية أخرىٰ نصّ «الخط الشزيف» علىٰ منع المسلمين من الإقامة في الباشوية، التي أصبحت إمارة الآن، باستثناء أولئك الذين يتبعون ثكنات الجيش العثماني في المدن. وحول مصير المسلمين الذين كانوا يعيشون في الباشوية فقد منحهم «الخط الشريف» سنة فقط لبيع أملاكهم للصربيين. أما عائدات الأملاك التي يرفض المسلمون بيعها (البيوت، الكروم، الأراضي إلخ) فقد نصّ «الخط الشريف» علىٰ إدراجها ضمن الالتزام السنوي الذي يدفع إلىٰ الإدارة العثمانية وهذه تحولها بدورها إلى المالكين.

وفي الواقع لقد أثار هذا «الخط الشريف» نقمة المسلمين لا في الباشوية وحسب بل وفي المناطق الأخرىٰ. وفي ١٨٣٣ أصدر السلطان «خطاً شريفاً» جديداً لتعديل بعض جوانب الخط السابق. فقد حدّد هذا الخط الجديد فترة خمس سنوات عوضاً عن سنة لرحيل المسلمين من القرىٰ حول المدن، باستثناء بلغراد، وذلك ابتداء من ١٨٣٣ وحتىٰ ١٨٣٨. وخلال هذه الفترة يبقىٰ المسلمون مرتبطين بالأجهزة العثمانية وتحت حكم وزير بلغراد.

في هذه الفترة الثانية من الحكم العثماني ١٨٣٠ - ١٨٦٢ طرأت تغييرات كبيرة علىٰ بلغراد. فمن جهة غدت المناطق الداخلية من الباشوية، التي أصبحت الآن إمارة صربية، خالية من المسلمين وأصبح السكان الصربيين في هذه المناطق تحت حكم الأمير ميلوش، بينما بقي المسلمون في المدن الكبيرة تابعين للحكم العثماني. ومع هذا فقد أثار «الخط الشريف» الأول والثاني ١٨٣٠ - ١٨٣٣ سخط وخيبة الكثير من المسلمين مما دفع قسماً منهم إلىٰ الهجرة وخاصة من بلغراد. ومن ناحية أخرىٰ ركز الأمير ميلوش نشاطه علىٰ تكثيف الوجود الصربي في المدينة تمهيداً لانتقاله إليها، وقد أصبحت بالفعل مقراً لأجهزة الحكم الذاتي الصربي منذ ١٨٤١. وعلىٰ الرغم من هذا فقد بقي وجود المسلمين في بلغراد كبيراً وكان له دور مؤثر في المدينة.

وحول هذه التطورات يكشف لنا إحصاء ١٨٣٤، الذي اعتمد علىٰ الأساس الديني، أن المسلمين كانوا يشكلون ٦٠ ٪ من سكان المدينة بينما كان المسيحيون واليهود يؤلفون ٤٠ ٪ من عدد السكان. وحسب هذا الإحصاء كان عدد بيوت المسلمين يمثل ٧٥ ٪ من بيوت المدينة، بينما كان عدد بيوت الصربيين واليهود (٧٦٩) أي ما يوازي ٢٥ ٪. وبعد انتقال أجهزة الحكم الذاتي الصربي من مدينة كراغويفتس إلىٰ بلغراد ١٨٤١ أخذ عدد الصربيين يزداد في المدينة حتىٰ تجاوز نسبة الـ ٥٠ ٪ في سنة ١٨٤٤، بينما انخفضت نسبة المسلمين إلىٰ ٣١ ٪. ومع هذا كان هذا التركيب السكاني لا ينسجم مع توزيع أصحاب البيوت. ففي ١٨٤٦ وصل عدد البيوت الصربية إلىٰ ما يوازي ٤٠ ٪ تقريباً من جملة البيوت في المدينة. وخلال هذه الفترة زاد عدد بيوت اليهود بشكل خاص فأصبحت تمثل سنة ١٨٤٦ ٤ ٪ وارتفعت هذه النسبة إلىٰ ٦ ٪ سنة ١٨٥٤.

وعلىٰ الرغم من هذه التطورات فقد بقيت بلغراد تحتفظ بطابعها الشرقي الإسلامي في هذه الفترة. فقد بقي عدد الجوامع قريباً، حوالي

ثلاثين جامعاً، مع أن أكثر من نصفها كان مهملاً نتيجة لتقلّص عدد المسلمين في المدينة. وهذا الطابع الشرقي الإسلامي للمدينة الذي كان يتميز بـ «المنارات الجميلة والرشيقة التي تلمع تحت أشعة الشمس» جعلت من بلغراد تدخل تحت عنوان «أجمل مشاهد العالم» في «القاموس العام» الذي أصدره العالم ماير سنة ١٨٣٨. ومع هذا يبدو أن حالة بعض الجوامع كانت تستدعي التدخل السريع لإصلاحها قبل أن تتهاوىٰ. ففي رسالة لوزير بلغراد يوسف باشا إلىٰ الأمير ميلوش في ٥ تموز ١٨٣٦ نجد أن «بعض الجوامع ليست صالحة بما فيه الكفاية إلى حد أنه لا يمكن تأدية الصلاة فيها...». وفي السنة ذاتها استجاب الباب العالي لاقتراح يوسف باشا وأرسل إلى بلغراد هلالين من الذهب وخمسين ألف قرش لـ «إصلاح جوامع بلغراد التي تحتاج إلىٰ إصلاح... وخاصة الجامع المهجور في فراتشار Vraĉar». ولكن الأمير ميلوش عارض بشدة إصلاح هذا الجامع لأنه كان يعتبره واقعاً خارج حدود المدينة. ونتيجة لتدخل الأمير ميلوش لدىٰ الباب العالي تم التخلي عن إصلاح هذا الجامع وأنفق المبلغ في إصلاح بقية الجوامع داخل المدينة.

وبالإضافة إلىٰ الجوامع فقد ساهمت التكايا والخانات والأسواق في استمرار الطابع الشرقي الإسلامي للمدينة في هذه الفترة. ففي تلك الفترة بقيت في المدينة أربعة تكايا، التي تمّ تجديد بعضها علىٰ نفقة قائد القلعة كامل باشا «إرضاء للسكان المسلمين». وإلىٰ جانب هذه بقي عدد الخانات كبيراً في تلك السنوات، حوالي عشرة، ومعظم هذه كانت تعود للمسلمين. وقد بقيت هذه الخانات تستعمل للإقامة القصيرة ولخزن البضائع أو للإقامة الطويلة مع فتح محلات حرفية فيها. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في ١٨٥٤ شوهدت آخر قافلة للجمال في بلغراد. وفيما يتعلق بالحرفيين فقد استمر نظام الأصناف خلال هذه الفترة أيضاً للحرفيين المسلمين فقط. ومن جهة أخرىٰ بقي السوق بطابعه الشرقي، وكان للتجار المسلمين حضور بارز فيه. وفي الواقع بقي المسلمون يمثلون أقوى قوة اقتصادية في المدينة حتىٰ نهاية هذه الفترة، أي حتىٰ سنة ١٨٦٢.

بلغراد تحت ظل العلم العثماني والحكم الصربي (١٨٦٢ - ١٨٧٦):

تميز العقد الخامس من القرن التاسع عشر بانتعاش الروح القومية الصربية التوسعية، بعد التطورات السابقة التي حصلت، وأخذ الشعور القومي الاستردادي يسيطر علىٰ جو المدينة. وفي هذا الاتجاه مارس الشعر والمسرح دوراً تحريضياً كبيراً في تسعير العواطف القومية ضد «الأتراك»، أي المسلمين بشكل عام بغض النظر عن قوميتهم لأن كل مسلم كان «تركياً» في ذلك الوقت. وفي تلك السنوات، في نهاية الخمسينات، كان الجيل الجديد المعبأ بالحماس القومي - الاستردادي الديني، والمتسلح بالخناجر والمسدسات، والمتجمع في الحانات والخانات، مستعداً في كل لحظة للاندفاع إلىٰ أحياء المسلمين ليغتال من يستطيع من السكان. وفي هذه الظروف ساد التوتر في المدينة وأصبحت كل جماعة تستعد للجولة الحاسمة التي أخذت تلوح في الأفق. وفي الواقع كان هذا الجيل بحماسه القومي الصدامي الداعي إلىٰ «تصفية الحساب» مع المسلمين يتجاوز في تطرفه موقف الأمير الذي كان يحبّذ الحلول الهادئة.

ويبدو أن حوادث ١٨٦٠ في لبنان وسوريا قد ساهمت بدورها في تصعيد التوتر في المدينة. وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أنه نتيجة لحوادث ١٨٦٠ كان قد تم نفي حوالي (١٥٠) من زعماء ومقاتلي الدروز إلىٰ بلغراد، وكان من هؤلاء حسين بك من Ajtez، وسليم بك والشيخ حسين من دير القمر إلخ. ويبدو أن وصول هؤلاء إلى بلغراد، في ظروف التوتر التي كانت تسيطر علىٰ المدينة، قد حمل معه «التجربة اللبنانية» بحيث أن كل طرف حاول تعبئة صفوفه علىٰ هذا الأساس. فوجود زعماء الدروز في بلغراد، وما كان قد سبقهم من روايات واقعية ومضخّمة عن التصفيات التي جرت، أثار موجة جيدة من التحريض لدىٰ المسيحيين علىٰ اعتبار أنه قد ينتظرهم «ما قد أصاب المسيحيين في سوريا». وفي الطرف الثاني كان المسلمون، الذين أصبحوا أقلية الآن وسط المسيحيين، يدركون أن هذه الحساسية التي نشأت عن

وصول زعماء الدروز، وانتهاز الطرف المسيحي لها لتعبئة صفوفه، توفر فرصة لتصفية الحساب معهم بحجة الانتقام لما حدث للمسيحيين في سوريا، ولذلك أخذوا يستعدون للصدام المتوقع.

وقد استمر هذا التوتر في التصاعد حتىٰ بلغ ذروته في ربيع ١٨٦٢. ففي تلك الشهور كانت النفوس معبأة تماماً في كل طرف ضد الآخر، والأسلحة والعتاد متوفرة في كل جانب، بحيث كانت أية شرارة تكفي لتفجير الوضع. وفي ١١ أيار ١٨٦٢ وقع حادث بسيط بين الدرك الصربي والجنود العثمانيين فتوقع الناس أن اللحظة قد حانت فسارع المسلمون إلىٰ إغلاق دكاكينهم والتجمع في المقاهي والبيوت الكبيرة وانسحب الصربيون في المقابل إلىٰ مراكزهم، إلا أن اليوم مرّ بسلام. وفي ٢٠ أيار كتب القنصل الانكليزي في بلغراد لونقفورت Longvort «أن الصدام بين الصربيّين والمسلمين أمر لا مفر منه». وفي تلك الأيام وصلت معلومات إلىٰ الباب العالي تفيد باستعداد الصربيين لشن هجوم شامل ضد المسلمين في المدينة فسارع إلى تحذير المسؤولين في المدينة.

وأخيراً حدث ما تم انتظاره طويلاً في الثالث من حزيران. ففي عصر ذلك اليوم جاء شاب صربي إلى سبيل للماء في المدينة وحاول تعبئة ما يحمل قبل ثلاثة جنود عثمانيين كانوا قد وصلوا قبله. وتطور هذا الموقف إلىٰ اشتباك بالأيدي وقام الجنود بضرب الشاب وسط تجمهر الصربيين وولولة النساء. وفي هذه الفوضى التي أعقبت الحادث قتل شاب يعمل مترجماً لدىٰ الإدارة الصربية وقاد هذا إلىٰ انفجار الوضع وقيام الصربيين بشن هجومهم الشامل علىٰ المسلمين في المدينة.

بدأ الهجوم في المساء باقتحام تكية الشيخ حسن، حيث قتل أحد المشايخ هناك. وفي هذه الظروف أفلت الوضع من يد الدرك الصربي ولم يعد في وسعه حماية المسلمين، فقام الشباب المندفعين وذبحوا ابنة ذلك

الشيخ القتيل ذات الستة عشر ربيعاً. وفي وقت متأخر من المساء بدأ الهجوم العام على المسلمين، الذين كانوا قد سارعوا للاحتماء في عدة جوامع. وقد جرت إحدىٰ المعارك الرئيسية حول جامع الدفتردار، حيث استمرت عدة ساعات. كان المسلمون يخوضون معركة خاسرة، نظراً لحصار الجامع والعدد الكبير للمهاجمين، ولذلك استسلموا أخيراً علىٰ أن يسمح لهم بالانسحاب. ونتيجة لهذه المعركة تعرض الجامع لأضرار بليغة وتم الاستيلاء علىٰ كل ما له قيمة من محتوياته. ومن المعارك الأخرىٰ التي استمرت خلال الليل كانت تلك التي جرت حول الجامع القديم في الميناء. كان الجامع مبنياً من الغرانيت الصلب مما أنقذ المسلمين المحتمين به. فبعد تبادل النار حاول المهاجمون إحراق الجامع لإرغام المسلمين علىٰ الإستسلام والخروج، إلا أن بناء الجامع كان من النوع الذي لا يمكن للنار أن تنتشر فيه. وإلىٰ جانب هذا كانت الرياح تهب من نهر الساڤا وتحمل معها زخات من المطر مما كان يعيق أيضاً انتشار النار، ولذلك قرر المهاجمون اقتحام الجامع إلىٰ الصباح. إلا أن المسلمين نجحوا في اختراق الحصار قبل الفجر وتمكنوا من الوصول إلىٰ قلعة المدينة بسلام.

في صباح ٤ حزيران كانت المدينة خالية من المسلمين. في ذلك الصباح كانت جثث المسلمين مازالت مطروحة أمام الجوامع التي شهدت المعارك. وحسب تقرير القنصل الانكليزي فقد «قتل الكثير من المسلمين في ليلة ٣ ـ ٤ حزيران». أما في الجانب الصربي، حسب تقرير اللجنة الصربية الرسمية، فقد سقط ٢٦ قتيلاً في تلك الليلة.

وبعد أن تمت السيطرة علىٰ المدينة التفت المهاجمون صوب القلعة، التي كان قد لجأ إليها من بقي حياً من المسلمين. وفي صباح ٥ حزيران أطلقت القلعة مدافعها ضد المهاجمين، وعرف هذا الحادث فيما بعد باسم «قصف بلغراد». وفي الواقع بدأ «القصف» في الساعة الثامنة والنصف صباحاً واستمر حتى الواحدة والنصف ظهراً. ولكن هذا كان «فضيحة» في الواقع

للمدافع العثمانية التي كانت من مخلفات حرب الغرم. فقد أطلقت هذه المدافع ١٨٠٠ ـ ٢٠٠٠ قنبلة انفجر منها أقل من الربع، وبقيت الأخرى في شوارع المدينة يلعب بها الأطفال. ونتيجة لهذا «القصف» احترقت أربعة بيوت للمسلمين وأصيبت مئذنة جامع، بينما احترقت أو دمرت عشرون بيتاً للصرب وأصيبت بأضرار عشرات البيوت الأخرىٰ.

وقد وجه الأمير الصربي ميخائيل نداء يطلب فيه المساعدة من وزير الخارجية الانكليزية راسل ومن إمبراطوري روسيا وفرنسا. إلا أن الوزير الانكليزي في جوابه حمّل الجانب الصربي مسؤولية ما حدث نتيجة لهجوم الصربيين علىٰ المسلمين ونهبهم لأملاكهم. وقد انضمت النمسا إلىٰ انكلترا في هذا الموقف علىٰ اعتبار أن الصربيين هم الذين قاموا بالهجوم مما اضطر قائد الحامية في القلعة للدفاع عن موقفه فقط. وفي مقابل هذا تعاطفت روسيا وفرنسا مع الجانب الصربي. ومع ذلك فقد أثار هذا الموضوع اهتمام الدول الأوربية بالمسألة الشرقية من جديد، وأدىٰ هذا أخيراً إلىٰ عقد اجتماع لتسوية الوضع في استنبول.

عقد هذا الاجتماع في ١٠ تموز ١٨٦٢ بمشاركة ممثلي روسيا وفرنسا وانكلترا وبروسيا وايطاليا والنمسا والباب العالي واستمر حتىٰ ٢٣ آب، حين تم التوصل إلىٰ «بروتوكول ١٨٦٢»، الذي تم التوقيع عليه في ٢٧ آب. وحسب هذا البروتوكول تم الاتفاق علىٰ ترحيل جميع المسلمين من الإمارة الصربية بما في ذلك مدينة بلغراد، علىٰ أن يحتفظ الجانب العثماني بأربعة قلاع عسكرية فقط في الإمارة (قلعة بلغراد، شاباتس Ŝabac، سمدرفو Smedervo، وكلادوفو Kladovo). وقد التزم الباب العالي حسب هذا البروتوكول بالعمل علىٰ ترحيل المسلمين بأقصىٰ سرعة. وفي الواقع كان المسلمون في بلغراد قد بدأوا في مغادرة المدينة قبل التوصل إلىٰ البروتوكول، وبعد التزام الباب العالي بترحيل من بقي تمّ إخلاء المدينة من المسلمين، الذين قاوموا هذا القرار في بعض المناطق حيث تمّ أخيراً

ترحيلهم بالقوة. وهكذا لم يبق من بلغراد بيد العثمانيين إلا القلعة.

بعد التوقيع علىٰ البروتوكول جرت المباحثات بين الطرفين العثماني والصربي حول أملاك ومنشآت المسلمين في مدينة بلغراد. وفي الواقع كان الباب العالي قد أدخل فقرة في «البروتوكول» تنصّ علىٰ هدم جزء من المدينة «الذي يسكنه بكامله تقريباً المسلمون في المجال الممتد من القلعة ـ الدانوب وإلىٰ الخط الممتد عبر تكية الشيخ حسن وجامع علي باشا»، مع الالتزام بدفع التعويضات لأصحاب البيوت من المسلمين والصربيين. وقد دخلت هذه الفقرة إلىٰ «البروتوكول» بحجة الحفاظ على أمن القلعة، التي سيحتفظ بها العثمانيون. إلا أن السبب الحقيقي لهذا التصرف لم يكن يتعلق بأمن القلعة بل كان ينبع من الوضع الحرج للباب العالي أمام المسلمين. ويوضح هذا ممثل الإمارة الصربية آنذاك في استنبول في تقريره الذي يشير فيه إلىٰ أن الباب العالي «أراد ألا تقع الجوامع في يد الصربيين. . . لكي لا يستغل المسلمون هذا التنازل ضد الحكومة العثمانية». وهكذا بحجة أمن القلعة قام العثمانيون بهدم ٤٢٧ بيتاً في الحي الشرقي القريب من القلعة، ومن هذه البيوت ٢٠٦ للمسلمين، وقد شمل هذا الهدم الذي استمر حتىٰ ١٨٦٤ جامع السلطان مصطفىٰ بينما بقي في موضعه جامع علي باشا بعد أن تمّ تعديل دائرة الهدم لكي يتم الحفاظ على حارة اليهود. ومع هذا فقد هدم هذا الجامع أيضاً بعد عدة سنوات، بعد ١٨٦٧.

وفي غضون هذا، خلال ١٨٦٣ ـ ١٨٦٥، استمرت المباحثات بين الطرفين العثماني والصربي حول مصير المنشآت الإسلامية وأملاك المسلمين في بقية المدينة. وقد وافق الباب العالي علىٰ تعويض قدره تسعة ملايين قرش علىٰ ألا يشمل هذا «مقابر المسلمين والجوامع في المدينة». إلا أن موقف الجانب الصربي كان متشدداً برفض أي استثناء «لا للجوامع ولا للمقابر التي لا يمكن أن تبقىٰ لكي لا تعيق تنظيم المدينة». وهكذا تمّ الأمر، كما يكتب الممثل الصربي في هذه المباحثات في حزيران ١٨٦٥،

وقبل الباب العالي بمبلغ تسعة ملايين قرش «باسم كل التعويضات التي يحق له أن يطالب بها حسب البروتوكول». وحسب هذه الاتفاقية، كما يذكر كانيتس Kanic، تمّ التوصل إلىٰ صيغة عامة لا تحرج الطرف العثماني حيث أن الجانب الصربي «حصل علىٰ الحق بهدم تلك الجوامع التي تعيق التنظيم الجديد للمدينة». وكما يقول كانيتس كان هذا المصير في الواقع يشمل «كل الجوامع تقريباً باستثناء إثنين تمت التوصية لحفظهما نظراً لمتانة بنائهما وربما لتحويلهما فيما بعد إلىٰ كنيستين».

بعد حوادث ١٨٦٢، التي دفعت بقسم من المسلمين إلىٰ مغادرة المدينة، وخاصة بعد «بروتوكول ١٨٦٢» الذي نصّ علىٰ ترحيل كل المسلمين من المدينة، تغيّر مشهد بلغراد بسرعة. ففي نهاية تلك السنة أصبحت المدينة خالية من المسلمين بعد أن استمروا بها أكثر من ثلاثة قرون، وجاء الإحصاء الذي جرىٰ في أواخر تلك السنة ليكشف عن الوضع الجديد لسكان بلغراد. فحسب هذا الإحصاء أصبح الصربيون والسينسار المتصرّبين يشكلون ٨٩ ٪ من سكان المدينة، بينما كان الكاثوليك يمثلون ٩ ٪ والبروتستانت ٢ ٪. وبين هؤلاء بقي موظف مسلم في الإدارة الصربية، طاهر أفندي، وشيخ ومؤذن بسبب ما بقي من المنشآت الإسلامية.

ومع كل هذه التطورات بقيت الإمارة الصربية في إطار الامبراطورية العثمانية حسب «بروتوكول ١٨٦٢». وفي الواقع كان الوجود العثماني قد أصبح بطابع عسكري بحت وينحصر في أربعة قلاع استراتيجية (قلعة بلغراد، شاباتس، سمدرفو و كلادوفو). وقد قام الأمير الصربي ميخائيل بمساع جديدة لدىٰ الباب العالي للحصول علىٰ فرمان سلطاني بالتخلي عن هذه القلاع الأربعة علىٰ أن تتولىٰ حمايتها القوات الصربية باسم السلطان وتحت العلم العثماني. وفعلاً نجحت مساعي الأمير ميخائيل وذهب بنفسه إلىٰ استنبول، في آذار ١٨٦٧، حيث تسلم من السلطان عبد العزيز فرمان التنازل عن القلاع الأربعة. وبعد عودة الأمير إلىٰ بلغراد جرىٰ احتفال حاشد حيث قام قائد قلعة بلغراد علي رضا باشا بتسليم الأمير مفاتيح القلعة. وخلال

هذا رفع العلم الصربي لأول مرة إلىٰ جانب العلم العثماني في القلعة. وبعد عدة أيام، في ٢٤ نيسان، غادرت بلغراد آخر وحدة عسكرية عثمانية بينها رحل القائد العثماني علي رضا باشا في اليوم الثاني، وأصبحت المدينة والقلعة وحدة مندمجة. وحتىٰ تلك السنوات، كما يذكر الباحث ف. ستويانتشفيتش V. Stojancêvić، كانت بلغراد تعتبر بداية الشرق» بالنسبة للرحالة الأوربيين.

في هذه الفترة ١٨٦٧ ـ ١٨٧٦، التي بقي فيها العلم العثماني يرفرف فوق بلغراد، بدأت المنشآت الإسلامية في الاندثار بشكل تدريجي.

فمع تنظيم المدينة اختفت بعض الجوامع وحُوّل أحد الجوامع إلى معمل غاز ملحق بمسرح المدينة، بينما بقيت حتىٰ نهاية هذه الفترة ٣ ـ ٤ جوامع مهجورة في انتظار مصيرها. ومن أهم هذه الجوامع كان «الجامع المهجور»، في الموقع الحالي للبرلمان اليوغسلافي، الذي كانت له قيمة أثرية كبيرة. وحول هذا الجامع لدينا وصف مثير له في أيامه الأخيرة: «كانت أبوابه مخلوعة وكانت الحيوانات غالباً ما تأوي إليه. الرائحة النتنة التي تنبعث منه كانت تلفت نظر عابر الطريق وتجعله يقترب منه ليدرك أن هذا الأثر للماضي الغابر، الذي يبدو مثيراً من الخارج، يستخدم لحاجات أخرىٰ تماماً». أما ما هي هذه «الحاجات الأخرىٰ» فيوضحها كاتب آخر، (ك. هريستتش K. Hristić، في أن الجامع كان «مزبلة لكل تلك المنطقة». وقد أدت هذه الحالة إلى تدخل الشرطة الصربية لمنع استخدامه كمزبلة «حرصاً علىٰ الصحة والأخلاق العامة».

وفي الواقع كان هذا الجامع قد بقي نظراً للاهتمام بقيمته الفنية، حتى إنه تم اقتراح إصلاحه واستخدامه كمركز للوثائق أو كمقر للمتحف. إلا أن هذا الاقتراح لم يُنفذ وتمّ هدم الجامع أخيراً. وحول التاريخ الذي هدم فيه هذا الجامع الأثري لدينا اختلاف بسيط في المصادر، ولكن يمكن الوثوق تماماً بمذكرات م. ميليتشفيتش M. Milićević الذي سجل بدقة هذا الحدث في يومياته بتاريخ ٢٨ أيار ١٨٧١: «البارحة ليلاً هدم الجامع المهجور. . .

وها قد بدأ تحطيم القوة التركية. لقد أعطىٰ صاحب الحانة بانتشيلا Pancêla (٢٣٠) ليرة ذهبية للسينسار لكي يهدموا هذا الجامع».

ومع هذا يبدو أنه نتيجة لاتفاق ١٨٦٧ أخذت الحكومة الصربية المحلية علىٰ عاتقها الانفاق علىٰ جامع واحد في المدينة، ألا وهو جامع البيرق. ففي ميزانية الإمارة لسنوات ١٨٦٩ - ١٨٧٦ جاء ما يلي: «مبلغ ١٢١٢,٤٨ دينار مساعدة للشيخ التركي خلال ١٨٦٩ - ١٨٧٠ وللسنوات اللاحقة مبلغ ١٥١٥,١٢ دينار، ومساعدة للمؤذن قدرها ٦٠٦,٢٤ دينار سنوياً، وتعويض سنوي للتدفئة للشيخ والمؤذن قدره ٣٠٣,١٢ دينار، ولإضاءة الجامع وللحاجات الأخرىٰ مبلغ سنوي قدره ٦٣١,٥٠ ديناراً».

بلغراد عاصمة صربيا (١٨٧٦ - ١٩١٨):

أدت التنازلات المتلاحقة للباب العالي إلى تصاعد الروح الاستردادية التوسعية في بلغراد، التي دخلت تحت ضغط الشارع في تنافس مع الجبل الأسود لتصفية الحكم العثماني في المناطق المجاورة في البلقان، التي كان يعيش فيها المسلمون والمسيحيون السلاف. وهكذا اندلعت انتفاضة المسيحيين في الهرسك في تموز ١٨٧٥ وسط تنافس الإمارة الصربية والجبل الأسود علىٰ التوسع في البوسنة والهرسك. وقد عرضت بلغراد خلال ١٨٧٦ علىٰ الباب العالي أن يتنازل عن البوسنة للإمارة الصربية وعن الهرسك للجبل الأسود، إلا أن الباب العالي رفض ذلك بشكل قاطع. وبعد قمع الانتفاضة، التي كانت قد اتخذت طابعاً دموياً ضد المسلمين، أعلنت إمارة الجبل الأسود الحرب علىٰ العثمانيين في صيف ١٨٧٦، وأجبر هذا بلغراد تحت ضغط الشارع علىٰ التورط في الحرب، مع أن بلغراد لم تكن مستعدة عسكرياً لحرب من هذه النوع. وهكذا، في ٢٠ حزيران ١٨٧٦، أنزل العلم العثماني عن ساريته في قلعة بلغراد وتبع هذا شنّ الحرب ضد العثمانيين. إلا أن هزيمة القوات الصربية في المعارك الأولىٰ دفع روسيا والقوىٰ الأوربية إلىٰ إلزام الباب العالي بوقف الحرب وعقد صلح مع الإمارة الصربية في شباط

١٨٧٧. وفيما بعد، في نيسان ١٨٧٧، شنت روسيا الحرب علىٰ العثمانيين لكي تفوت عليهم فرصة الاستفادة من نصرهم، وتقدمت القوات الروسية بسرعة في البلقان ودفعت الإمارة الصربية علىٰ التورط في الحرب مرة ثانية في أواخر ١٨٧٧. وفي هذه الظروف قامت القوات الصربية بالتوسع جنوباً وتمكنت من السيطرة علىٰ مناطق كبيرة. ومن المعروف أن الجيش الروسي تابع تقدمه في هذه الحرب حتىٰ وصل إلىٰ ضواحي استنبول، مما أجبر الباب العالي علىٰ التوقيع علىٰ معاهدة سان ستيفانو المعروفة، التي أصبحت روسيا بمقتضاها تسيطر علىٰ البلقان مما أثار بقية الدول الأوربية. وفيما بعد، في مؤتمر برلين ١٨٧٨، أُعيد تنظيم الوضع في البلقان. وما يهمّنا هنا أن قرارات مؤتمر برلين اعترفت باستقلال الإمارة الصربية عن الامبراطورية العثمانية وتوسيع حدودها بما يشمل المناطق التي سيطرت عليها خلال الحرب، وعدم السماح للمسلمين بالعودة إلىٰ تلك المناطق التي طردوا منها. وهكذا أصبحت بلغراد نتيجة هذه الحرب عاصمة الدولة الجديدة ـ مملكة صربيا.

في هذه الظروف، بعد أن أصبحت بلغراد عاصمة صربيا المستقلة، تطورت المدينة واكتسبت بسرعة الطابع الأوربي علىٰ حساب ما بقي من المنشآت الشرقية الإسلامية. وباستثناء الجامع الوحيد الذي كان قد استمر وجوده بمساعدة الحكومة الصربية، كما مرّ معنا سابقاً، فقد بقيت حتىٰ نهاية الفترة السابقة ٣ـ٤ جوامع مهجورة في المدينة، إضافة إلىٰ جامعين في القلعة تحت العلم العثماني. وبعد إعلان الاستقلال جاء دور هذه الجوامع أيضاً. فالجامع الذي كان يقع في القسم المرتفع من القلعة تحول إلىٰ أنقاض نتيجة «حادث» كما قيل حينئذ، أما الجامع الآخر في القسم المنخفض من القلعة فتم تحويله إلى مخزن عسكري. وخلال الثمانينات تلاشت بقية الجوامع التي كانت مهجورة منذ ١٨٦٢. ومن هذه بقي إلىٰ اليوم في بلغراد «جامع البيرق» فقط.

كان هذا الجامع كما رأينا قد تولت الإنفاق عليه الإدارة الصربية منذ

١٨٦٨ نظراً لأن «غالبية المسلمين كانت في فقر مدقع وليست قادرة علىٰ تحمل مصاريف الشيخ والمؤذن»، كما تذكر الوثائق الصربية في ذلك الحين. وقد استمر هذا الجامع في استقبال المسلمين حتىٰ ١٨٧٦، حين اندلعت الحرب بين الإمارة الصربية والامبراطورية العثمانية. ففي تلك السنة سيطر الخوف علىٰ المسلمين وغادرت أغلبيتهم المدينة، بما في ذلك الشيخ والمؤذن، وتمّ بعد ذلك ختم أبواب الجامع والختم عليها. وفي الفترة اللاحقة لا نعرف الكثير عن مصير هذا الجامع. فالرحالة كانيتس خلال إقامته في بلغراد ١٨٧٧ ذكر هذا الجامع ووصف حالته المزرية: «كانت أبوابه ونوافذه محطمة وقد استسلم للسقوط...». وعلىٰ الرغم من كونه في هذه الحالة فقد استمر علىٰ ما يبدو في استقبال المسلمين. ويدل علىٰ هذا أن الحكومة الصربية عادت منذ سنة ١٨٨٣ لتقدم المساعدة إلى «الشيخ التركي»، وإلى «المؤذن التركي» حتى ١٨٩٢.

وفي الواقع لقد شهدت تلك الفترة تحسناً عابراً في العلاقات العثمانية ـ الصربية. ويبدو أن هذا شجع المسلمين، الذين غادروا المدينة سنة ١٨٧٦، علىٰ العودة إليها ومن المحتمل أن بعض المسلمين جاؤوها لأول مرة. وفي هذه الظروف، نتيجة لتحسن العلاقات بين بلغراد واستنبول، قامت الحكومة الصربية بإصلاح الجامع سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ ـ ١٨٩٤)، كما يدل علىٰ هذا اللوحة التي ما زالت محفوظة إلىٰ الآن علىٰ مدخل الجامع. وبعد هذا الإصلاح أصبح جامع البيرق تابعاً لمحافظة بلغراد، التي كانت تتولىٰ دفع معاش لشيخ هذا الجامع. وهكذا بقي هذا الجامع كما يذكر ا. يوفانوفيتش A. Jovanović في نهاية القرن التاسع عشر، «يخدم المسلمين الذين يقيمون بشكل دائم في بلغراد والأجانب الذين يعبرون بلغراد».

بلغراد عاصمة يوغسلافيا (١٩١٨ ـ ١٩٨٣):

في نهاية الحرب العالمية الأولىٰ أصبحت بلغراد عاصمة للدولة الجديدة «مملكة الصربيين والكراوتيين والسلوفينيين» (يوغسلافيا لاحقاً)،

١٩٦٢. ومع أن عدد المسلمين قد تضاعف عدة مرات في العشرين سنة الأخيرة ١٩٦٢ - ١٩٨٣ وأصبح يقارب الثمانين ألفاً[١]، فقد بقي هذا الجامع حتىٰ الآن الوحيد للمسلمين في المدينة. وفي الواقع لقد تقدمت الجماعة الإسلامية في بلغراد منذ فترة لا بأس بها إلىٰ السلطات المختصة بمخطط لتوسيع الجامع الحالي في بلغراد (انظر الملحق ٢، رقم ٢٠)، وذلك ليفي بحاجة «العدد الكبير من المؤمنين والدبلوماسيين من البلاد الإسلامية»، ولكنها لم تحصل إلى الآن علىٰ الموافقة علىٰ هذا المشروع[٢]. وبقي أن نضيف أخيراً إنه علىٰ الرغم من تضخم عدد المسلمين في بلغراد إلا أنهم لا يشكلون الآن إلا أقلية بسيطة وسط سكان بلغراد الذين تجاوز عددهم المليون.

---

(١) في الواقع إن تحديد عدد المسلمين في بلغراد الآن يبقىٰ على وجه التقريب لأن الإحصاء الأخير (١٩٨١) لا يقدم معطيات دقيقة بسبب بعض الظروف السياسية الطارئة. فحسب هذا الإحصاء لا نجد إلا عشرين ألف مسلم تقريباً، بينما أصبحنا نعرف الآن أن عدد الألبانيين فقط يصل إلى ستين ألفاً:

Nikola Dordević - Slobodan Reljić, Albanciu Beograd, Intervju 68, Beograd 6. I. 1984, PP. 16 - 20.

+ ملاحظة أضيفت في ١٤ - ١ - ١٩٨٤ +

(٢) حول هذه القضية نشرت مجلة «سفيت» البلغرادية تحقيقاً مطولاً وغنياً بالمعطيات تحت عنوان «جامع لبلغراد»، وفيه يتضح أن موقف السلطات المختصة (مجلس المحافظة) لا يتعلق فقط بالجماعة الإسلامية وإنما أيضاً يشمل الجماعتين الأرثوذكسية والكاثوليكية التي تطالب أيضاً ببناء كنائس جديدة في بلغراد. واستناداً إلى هذا التحقيق يتضح أنه لم يتم بناء أي معبد ديني (كنيسة أو جامع) منذ الحرب العالمية الثانية:

«وفي بلغراد لم يجر إنشاء أي بناء ديني منذ الحرب. فبعد التحرير لم تكن هناك حاجة لذلك، وفيما بعد لم تأخذ المخططات العمرانية الجديدة بعين الاعتبار بناء معابد دينية، لأنها لم تكن تثير الاهتمام بالنسبة لهم»:

Jadranka Mirić, Dzamija za Beograd», Svet 52, Beograd 18. IV. 1984, pp. 17 - 19.

ملاحظة: أضيفت في ١٨ - ٤ - ١٩٨٤.

التي تشكلت في أول كانون الأول ١٩١٨، والتي اشتملت علىٰ عدد لا بأس به من المسلمين. وفي العهد اليوغسلافي بقي في بلغراد جامع البيرق، وأصبح يرتاده الآن عدد أكبر من المسلمين نتيجة للاختلاط بين سكان الدولة الجديدة. وفي ١٩٣٠ قامت محافظة المدينة بأول تجديد كبير للجامع، وذلك بمناسبة تنصيب رئيس جديد للعلماء المسلمين في يوغسلافيا. وبعد ثلاث سنوات بنت المحافظة في إطار الجامع بيتاً جديداً لسكن الإمام. وفي ١٩٤١، مع القصف الألماني لبلغراد، أصيب الجامع واحترق سقفه ولكن تمّ إصلاحه في السنة ذاتها. وفي ١٩٤٤، خلال المعارك التي جرت لتحرير بلغراد، أصيب الجامع بأضرار في سقفه وقمة مئذنة وفي إحدىٰ زواياه. وقد تم إصلاح هذه الأضرار حتىٰ ربيع ١٩٤٥ من طرف المجلس الشعبي للمدينة.

ومع بداية العهد الاشتراكي، ونتيجة للانفتاح والاختلاط بين السكان، ارتفع عدد المسلمين بسرعة في بلغراد حتىٰ وصل في الخمسينات إلى حوالي عشرة آلاف. وفي الواقع كان قسم كبير من هؤلاء من الألبانيين الذين قدموا إلىٰ بلغراد للبحث عن لقمة العيش. وعلىٰ الرغم من هذا الارتفاع الكبير في عدد المسلمين فقد بقي جامع البيرق مغلقاً طيلة الخمسينات. وفي الواقع كان هذا الجامع قد وضع أولاً سنة ١٩٤٦ تحت حماية الدولة كبناء أثري. وقد بقي مغلقاً حتىٰ ١٩٥٤ حين كُلّف المعهد الجمهوري لحماية ورعاية الآثار الفنية بالقيام بترميم الجوانب الفنية فيه، ولذلك بقي الجامع مغلقاً حتىٰ بداية الستينات. ويبدو أن ظروف تلك الفترة قد ساعدت علىٰ تسريع إعادة هذا الجامع للجماعة الإسلامية في المدينة. فقد شهدت أواخر الخمسينات إزدهار علاقات بلغراد مع العالمين العربي والإسلامي، وانعقاد المؤتمر الأول للدول غير المنحازة في بلغراد، وافتتاح سفارات كثيرة للدولة العربية والإسلامية في العاصمة، مما حتّم وجود جامع علىٰ الأقل في بلغراد. وهكذا، وبفضل اهتمام وملاحقة الشيخ حمدي سباهيتش مفتي بلغراد، تم تسليم الجامع للجماعة الإسلامية وعاد المسلمون للصلاة فيه سنة

الملحق الأول

جوامع ومساجد بلغراد

١ ـ الجوامع:

مع أن بلغراد كانت من أغنىٰ المدن بالجوامع في أوربا في منتصف القرن السابع عشر إلا أن المصادر المعروفة حتىٰ الآن لا تقدّم المعطيات الكافية إلا حول بعض الجوامع فقط، وحتى هذه المعطيات تختلف في أهميتها من جامع إلىٰ آخر. وبالإضافة إلىٰ هذا تكمن المشكلة في أن بعض الجوامع قد اندثرت دون أن يُشار إليها بالحد الأدنىٰ من المعلومات، بينما جرىٰ تجديد بعض الجوامع مما جعلها تعرف بأسماء جديدة، وهذا أدىٰ بدوره إلىٰ اختلاط المعطيات حول الجامع الواحد الذي أصبح يُعرف ويذكر بأكثر من اسم. وقد عمدنا هنا إلىٰ الاسم الأخير الذي عرف واشتهر به الجامع مع الإشارة إلى اسمه أو أسمائه القديمة حسب توفّر المعطيات. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الجوامع بقيت معروفة لنا من خلال اللوحات والصور الفوتوغرافية النادرة، بينما لا نعرف إلى الآن شكل غالبية الجوامع الأخرىٰ.

ـ جامع إبراهيم بك:

من أقدم جوامع بلغراد. كان في الأصل مسجداً يعود تاريخه إلىٰ ما بين ١٥٧٢ ـ ١٥٨٢، حيث برزت في ذلك محلة جديدة تحمل اسم الجامع. ورد ذكره لدىٰ شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ باسم «جامع الحاج إبراهيم» وذكر لآخر مرّة في نهاية القرن السابع عشر.

- **جامع إبراهيم شلبي:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠. وفي معرض حديثه عن البيوت في بلغراد ذكر شلبي أيضاً بلاطاً لإبراهيم شلبي. وربما يكون وراء هذه المنشآت شخص واحد، مع أننا لا نعرف عنه شيئاً علىٰ كل حال.

- **جامع آت بازار:**

ذكر شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ محلة آت بازار دون أن يذكر اسم الجامع فيها، علىٰ اعتبار أن كل محلة كانت تحتوي علىٰ جامع علىٰ الأقل. كان هذا السوق يقع في حديقة كالمفدان الحالية، ومن المؤكد أن الجامع كان في هذا الموقع.

- **جامع إدريس بك:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ مع محلّة تحمل الاسم ذاته.

- **جامع حسن آغا - بولمه حصار:**

من أقدم جوامع بلغراد. كان في الأصل مسجداً كما ورد في إحصاء ١٥٦٠ لأول مرة. ويبدو أن شلبي بعد قرن من الزمن (١٦٦٠) ذكر هذا الجامع باسم «جامع أمير حسن».

- **جامع البيرق (جامع الحاج علي تشوكاجي سابقاً):**

كان الجامع الأصلي من الجوامع القديمة في بلغراد. بُني علىٰ ما يبدو في النصف الثاني للقرن السابع عشر، حيث أنه لم يرد ذكره لدىٰ شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ بينما ذُكر لأول مرة سنة ١٦٨٨. وبعد الاحتلال النمساوي لبلغراد ١٧١٧ منح هذا الجامع إلى طائفة الجزويت وتمّ تحويله إلى كاتدرائية كاثوليكية خلال الحكم النمساوي للمدينة ١٧١٧ - ١٧٣٩. وبعد استرداد العثمانيين للمدينة قام الكتخدا حسن بتجديد هذا الجامع القديم سنة ١٧٤١، وبقي الجامع يذكر باسمه القديم وأحياناً باسم «جامع الكتخدا حسن» أو «جامع الكتخدا» فقط. وحول هذا لدينا الآن في المكتبة الجامعية ببلغراد مخطوطة كتاب «المشارق» وهي بخط أحمد بن عثمان

أفندي البلغرادي «إمام جامع الكتخدا» التي انتهىٰ منها سنة ١٧٥٢. وقد ورد الجامع أيضاً بهذا الاسم في محضر موجّه من مسلمي بلغراد إلىٰ الباب العالي سنة ١٨٠١، وفي هذا المحضر ورد ذكر إمام وخطيب هذا الجامع (الشيخ أحمد). ومع هذا فقد أخذ هذا الجامع يشتهر لدىٰ مسلمي بلغراد منذ نهاية القرن الثامن عشر باسم «جامع البيرق» بسبب رفع البيرق عليه للإعلان عن الصلاة في وقتها المحدّد مما كان يستدعي وجود مسلم خبير بتحديد الوقت (المؤقّت Muvakit). تم إصلاح هذا الجامع عدة مرات، وهو الوحيد الذي بقي إلىٰ الآن من جوامع بلغراد (انظر الملحق الثاني، رقم ١٨ - ١٩).

- جامع بيرم بك (الجامع الأسود):

من أقدم الجوامع في بلغراد، إذ ان تاريخ بنائه يعود إلى سنوات ١٥٣٦ - ١٥٦٠. وقد ورد هذا الجامع أيضاً في وصف شلبي لبلغراد ١٦٦٠. ويبدو أن بيرم بك كان من الشخصيات الكبيرة إذ بنى إلى جانب هذا الجامع مدرسة وحماماً وعمارة. وبالإضافة إلىٰ هذا كان في بلغراد محلة وسوق يحملان اسمه أيضاً. وقد أشاد بهذا الجامع الرحالة أوتندورف سنة ١٦٦٣ علىٰ اعتباره من أكبر وأشهر الجوامع في بلغراد. خلال الحكم النمساوي ١٧١٧ - ١٧٣٩ حوِّل هذا الجامع إلىٰ كنيسة كاثوليكية، وعاد للمسلمين بعد ذلك. وقد قام دفتردار الروسللي الحاج مصطفىٰ أفندي عاطف زاده بتجديد هذا الجامع بعد استرداد العثمانيين للمدينة سنة ١٧٣٩. ومع أن الجامع بقي محتفظاً باسمه القديم إلا أنه يذكر أحياناً في بعض الوثائق باسم «جامع عاطف زاده».

بعد «بروتوكول ١٨٦٢» أصبح الجامع مهجوراً. في تلك الفترة كانت أمام الجامع تكية مهجورة أيضاً. وفي ١٨٦٩، حين تمّ تشييد المسرح القومي في جواره، حوِّل هذا الجامع إلىٰ معمل لإنتاج الغاز لإضاءة المسرح. وقد عرف بعد هذا باسم «الجامع الأسود»، ويبدو أن هذا الاسم طغىٰ عليه بعد

أن غلب السواد علىٰ لون جدرانه نتيجة لتشغيل آلات إنتاج الغاز فيه. وقد بقي هذا الجامع ـ المعمل ينتج الغاز إلى سنة ١٨٩٢، حين دخلت الكهرباء إلىٰ بلغراد، وهدم في السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر. ومن هذا الجامع لدينا أقدم لوحة تعود إلىٰ سنة ١٨٥٦، ثم لدينا لوحتان متشابهتان الأولى للمهندس المعماري يوڤانوڤيتش من سنة ١٨٧٠، والثانية للرحالة كانيتس من سنة ١٨٨٧. والفرق بين اللوحتين أن المئذنة لا تبدو في الثانية، أي أنها هدمت خلال ١٨٧٠ ـ ١٨٨٧. وقد تم حديثاً اكتشاف صورة فوتوغرافية نادرة لبلغراد سنة ١٨٧٦، حيث يبدو هذا الجامع مع مئذنته، وهذا يعني أن المئذنة قد هدمت بالتأكيد خلال سنوات ١٨٧٦ ـ ١٨٨٧. وبالإضافة إلىٰ هذا لدينا صورة فوتوغرافية واضحة للجامع تعود إلى سنة ١٨٦٥ (انظر الملحق الثاني رقم ١٣)، ولوحة نادرة له بعد أن تم تحويله إلى معمل (انظر الملحق الثاني، رقم ١٤).

كان هذا الجامع «عظيماً ومن الحجر بكامله وحسب وصف أحد المعاصرين له، وكانت فيه مكتبة غنية بالمخطوطات قام بتنظيمها رشيد بك ولا نعرف ماذا حل بها بعد ١٨٦٢.

ـ جامع التربة:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠. ويبدو أنه قد اشتهر بهذا الاسم لكونه يشتمل على تربة (ضريح) لأحد الصالحين.

ـ جامع تشيك:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ مع محلّة تحمل الاسم ذاته.

ـ الجامع الجديد:

ذكر هذا الجامع للمرة الأولىٰ والأخيرة سنة ١٦٩٩، ويبدو أنه من الجوامع الجديدة التي بنيت بعد عودة العثمانيين إلى بلغراد ١٦٩٠، والتي اندثرت نتيجة للحرب النمساوية ـ العثمانية ١٧١٧ أو للحكم النمساوي للمدينة ١٧١٧ ـ ١٧٣٩.

ـ **جامع حسن علي آغا**:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ مع محلة تحمل الاسم ذاته.

ـ **جامع غنيش آغا**:

من المؤكد أن هذا الجامع كان له اسم آخر لأن شلبي في وصفه لبلغراد ذكر محلّة بهذا الاسم دون أن يذكر اسم الجامع فيها.

ـ **جامع الحاج حسن آغا**:

من أقدم جوامع بلغراد. كانْ مسجداً في الأصل كما ورد في إحصاء ١٥٦٠. ثم تم توسيعه لاحقاً وتحول إلىٰ جامع حوالي ١٥٨٢. ومع أن هذا الجامع يرد بهذا الاسم في المصادر العثمانية حتى نهاية القرن السابع عشر إلا أننا لا نجده لدىٰ شلبي بهذا الاسم بل نجد لديه «جامع حسن آغا».

ـ **جامع الحاج خليل**:

ذكره شلبي في وصفه لبلغـراد ١٦٦٠ مع محلّة تحمـل اسم هذا الجامع، وورد ذكره أيضاً في بقية المصادر العثمانية إلىٰ نهاية القرن السابع عشر.

ـ **جامع الدباغة**:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠، وقد عرف الجامع بهذا الاسم لكونه يقع في «محلة الدباغة». وقد صمد هـذا الجامـع خلال الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩، وبعد عودة المدينة للعثمانيين اختاره سعيدْ حسن باشا لتجديده ولكن لدىٰ الكشف عن الجامع تبين أنه ملغوم ولذلك تخلىٰ عنه. وفيما بعد تولّت تجديده محافظة المدينة، وورد ذكره سنة ١٧٧٨ في براءة لمتولي أوقافه، ولكن لا يذكر في هذه البراءة اسم صاحب أوقافه. اندثرت آثار الجامع بعد ذلك الوقت، ومن المؤكد أنه سقط نتيجة للهجوم النمساوي سنة ١٧٨٩ أو فيما بعد.

ـ **جامع الدفتردار (جامع الحاج بيري سابقاً)**:

يعتبر الجامع الأصلي من أقدم الجوامع في بلغراد، إذ يرجع تاريخه

إلى نهاية القرن السادس عشر أو بداية القرن السابع عشر. ورد ذكره لدى شلبي في وصفه لبلغراد مع محلة تحمل اسم الجامع. أصبح هذا الجامع كنيسة خلال العهد النمساوي ١٧١٧ ـ ١٧٣٩، وبعد عودة المدينة إلىٰ العثمانيين قام دفتردار بلغراد أحمد بن إبراهيم البلغرادي بإصلاح وتجديد هذا الجامع وأصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم «جامع الدفتردار». وفيما بعد أصبح أحمد وزيراً ووالياً لسالونيك ومصر في عهد السلطان عثمان الثالث الذي لقّبه بـ «الكامل»، ولذلك يرد جامعه باسم «كامل أحمد باشا». ورد الجامع في مخطط المهندس بروش لبلغراد ١٧٨٩، وورد ذكره سنة ١٨٠١ باسم «جامع كامل أحمد باشا» مع اسم إمامه وخطيبه الشيخ فيصل في محضر موجه من مسلمي بلغراد إلىٰ الباب العالي. وقد دارت حول هذا الجامع إحدى المعارك الرئيسية في حوادث حزيران ١٨٦٢، ومن المؤكد أنه قد تعرض لأضرار نتيجة ذلك. بعد ١٨٦٢ أصبح الجامع مهجوراً وهدم حوالي ١٨٨٠. وقد بقي لنا من هذا الجامع صورة فوتوغرافية نادرة من ١٨٧٦، حيث يبدو فيها الجامع بوضوح (انظر الملحق الثاني، رقم ١٥).

ـ جامع رئيس أفندي (جامع أحمد آغا سابقاً):

يعتبر الجامع الأصلي من أقدم جوامع بلغراد. كان في الأصل مسجداً وذكر لأول مرة في إحصاء ١٥٣٦، وفي بقية الاحصاءات ١٥٦٠ ـ ١٥٨٢. ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠، وفي أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر أصبح يذكر باسم الغازي أحمد باشا. ومن المؤكد أن النمساويين استخدموا هذا الجامع لأغراض مختلفة خلال حكمهم للمدينة ١٧١٧ ـ ١٧٣٩، مما استدعىٰ تجديده بعد عودة المدينة للعثمانيين. وقد قام بتجديد هذا الجامع في سنة ١٧٤٠ رئيس الكتاب حاجي مصطفىٰ، وأصبح يُعرف منذ تلك السنة باسم «جامع رئيس أفندي»، وقد ذكر أخيراً بهذا الاسم في المخطط العثماني ١٨٦٣. واستناداً إلىٰ هذا يمكن تحديد موقعه في ساحة المدرسة الابتدائية الحالية «يانكو ڤيسيلنوڤيتش». استمر هذا الجامع في

موقعه حتىٰ سنة ١٨٦٧، ومن المؤكد أنه قد هدم خلال العقد السابع أو الثامن للقرن الماضي.

ـ جامع زين الدين آغا:

من أقدم جوامع بلغراد. كان في الأصل مسجداً وورد ذكره لأول مرة في إحصاء ١٥٣٦. أصبح فيما بعد جامعاً وذكره علىٰ هذه الحالة شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠، كما ذكر في بعض الوثائق العثمانية التي تعود إلىٰ نهاية القرن السابع عشر، والتي حدّدت موقعه قرب جامع العمارة.

ـ جامع سعيد حسن باشا:

بُني هذا الجامع في القسم المنخفض من القلعة بعد استرداد العثمانيين لبلغراد سنة ١٧٤٠. ويبدو أن الجامع أصيب بأضرار نتيجة للحرب العثمانية ـ النمساوية حول بلغراد في نهاية القرن الثامن عشر، أو خلال الحكم الصربي للمدينة ١٨٠٦ ـ ١٨١٣، وبقي علىٰ هذه الحالة حتىٰ ١٨٢٦ علىٰ الأقل. ورد ذكر هذا الجامع في المخطط العثماني ١٨٦٣، وبعد استقلال صربيا سنة ١٨٧٨ تم تحويله إلىٰ مخزن عسكري. وبقي هذا الجامع ـ المخزن قائماً حتىٰ نهاية الحرب العالمية الأولىٰ، وربّما حتىٰ بداية الحرب العالمية الثانية. وقد بقي لنا من هذا الجامع صورة فوتوغرافية نادرة تعود إلى سنة ١٨٦٧، أي إلى السنة الأخيرة للوجود العثماني في بلغراد (انظر الملحق الثاني، رقم ١٠) وصورة أخرىٰ من بداية القرن العشرين بعد أن هدمت مئذنته وحول إلىٰ مخزن عسكري (انظر الملحق الثاني، رقم ١١).

ـ جامع السلطان سليمان في القسم المرتفع من القلعة:

من أقدم جوامع بلغراد، إذ أنه قد بني بعد فتح السلطان سليمان لبلغراد سنة ١٥٢١. وورد ذكره لأول مرة في إحصاء ١٥٦٠. وقد أشاد شلبي خلال زيارته لبلغراد بهذا الجامع وخاصة بمئذنته الرشيقة والمؤلفة من (١٠٥) درجات، التي أبدع في تشييدها المعمار سنان. وحول هذا الجامع إلىٰ كنيسة

خلال الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩ وهدم مع بقية المنشآت في القسم المرتفع من القلعة لدىٰ انسحاب النمساويين من بلغراد. وفيما بعد قام السلطان محمد بتشييد جامع آخر بالقرب من الموقع الذي كان فيه جامع السلطان سليمان (راجع مادة جامع السلطان محمد).

ـ جامع السلطان سليمان في القسم المنخفض من القلعة:

دون شك يعتبر هذا الجامع أقدم جامع في بلغراد والوحيد الذي تُجمِع المصادر علىٰ أنه كان كنيسة في الأصل. فعلىٰ عادة العثمانيين بعد فتحهم لكل مدينة تم اختيار هذه الكنيسة، التي لا يتفق الباحثون حول وضيعتها، وحولت بسرعة إلىٰ جامع لأداء صلاة الجمعة في اليوم الثاني لفتح المدينة الذي صادف ٢٧ رمضان سنة ٩٢٧ هـ. وقد ذكر هذا الجامع شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ واكتفىٰ بالإشارة إلى أنه «مغطىٰ بالرصاص». وقد قام النمساويون خلال حكمهم لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩ بهدم هذا الجامع مع غيره في القسم المنخفض للقلعة.

ـ جامع السهل الصغير

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد سنة ١٦٦٠، وورد ذكره أيضاً في بعض المصادر العثمانية حتى نهاية القرن السابع عشر.

ـ جامع الحاج صادق

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ مع محلة تحمل الاسم ذاته، وورد ذكره أيضاً في بعض المصادر العثمانية حتىٰ نهاية القرن السابع عشر.

ـ جامع الحاج صالح:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد مع محلة باسم الجامع، وورد ذكره أيضاً في بعض الوثائق العثمانية حتى نهاية القرن السابع عشر.

ـ جامع عبد الجبار:

يعدُّ هذا الجامع من أقدم جوامع بلغراد. وكان في الأصل مسجداً كما

ورد في إحصاء ١٥٨٢، وهذا يعني أنه قد بُني بين ١٥٧٢ ـ ١٥٨٢. وفيما بعد أصبح جامعاً، وذكره شلبي في وصفه لبلغراد باسم «جامع عبد الجبار أفندي» مع محلّة تحمل الاسم ذاته. ويبدو أنه قد هدم خلال الحرب النمساوية ـ العثمانية ١٦٨٨، لأنه لم يعد يذكر بعد شلبي.

ـ جامع علي باشا (جامع الشهادة سابقاً):

يُعَدّ هذا الجامع من أقدم جوامع بلغراد. وقد زاره شلبي خلال زيارته لبلغراد ونقل لنا ما نقش من أبيات للشاعر زيني علىٰ لوحة الجامع التي تحدد تاريخ تشييده ١٥٧٤ ـ ١٥٧٥. وحسب شلبي فقد بنىٰ هذا التاجر الشيخ محي الدين. وهذا الجامع ـ كما يذكر شلبي ـ كان يتميّز في أنه يحتوي في جواره علىٰ قبور المقاتلين المسلمين الذين استشهدوا عند أسوار بلغراد خلال عهد السلطانين محمد الفاتح وسليمان القانوني. وكان هذا الجامع يقع بالقرب من القسم المنخفض للقلعة. واستناداً إلىٰ براءة صادرة لإمام هذا الجامع محمود أفندي سنة ١٦٩٩ يتضّح أن أبواب هذا الجامع بقيت مفتوحة للمسلمين حتىٰ ذلك الوقت. وبعد الاحتلال النمساوي للمدينة ١٧١٧ منح هذا الحامع لإحدىٰ الجماعات الكاثوليكيّة لتحويله إلىٰ كنيسة، وبقي على هذه الحالة حتىٰ نهاية الحكم النمساوي لبلغراد ١٧٣٩. وبعد استرداد العثمانيين للمدينة قام محافظ بلغراد علي باشا سنة ١٨٤٠ بتجديد هذا الجامع وتنظيم أوقاف له. وقد ذُكر هذا الجامع باسمه القديم لآخر مرة سنة ١٨٤٠، بينما أصبح يُعرف منذ تلك السنة باسم «جامع علي باشا». وبقي هذا الجامع تحت تصرّف المسلمين حتىٰ سنة ١٨٦٢، واستمرّ قائماً في موقعه لفترة أخرىٰ حيث ورد في المخطط العثماني وفي مخطط يوسيموڤيتش ١٨٦٧، ومن المؤكد أنه قد هدم خلال العقد السابع للقرن الماضي. وكان هذا الجامع مجهول الشكل إلىٰ أن تمّ مؤخراً اكتشاف لوحة له من رسم المهندس المجري ل. بيته (انظر الملحق الثاني، رقم ٧).

ـ جامع الحاج علي:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠. وقد نقل لنا شلبي ما نُقش على

لوحتين علىٰ هذا الجامع، حيث تؤرخ الأولى بداية تشييد الجامع ١٦٥٠ والثانية نهاية العمل فيه ١٦٥١.

ـ جامع الحاج علي الفقير:

ذكره بهذا الاسم شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠. ويبدو من بعض المصادر في نهاية القرن السابع عشر أن هذا الجامع قد بقي حتىٰ الحكم النمساوي للمدينة ١٧١٧ ـ ١٧٣٩. وبعد عودة المدينة للعثمانيين تم تجديد هذا الجامع علىٰ حساب خزينة بلغراد في منتصف القرن الثامن عشر (قبل ١٧٥٨)، واشتهر لدىٰ الشعب باسم «جامع الفقراء». وفي مخطط المهندس بروش ١٧٨٩ يبدو هذا الجامع شرق «سوق الأرناؤوط» في المحلة التي أشير إليها باسم «محلة الفقراء». ويبدو أن هذا الجامع قد بدأ في الاندثار خلال الحكم الصربي للمدينة ١٨٠٦ ـ ١٨١٣ حتى إنه كان مهجوراً سنة ١٨٣٦، بينما يبدو شبه مندثر في المخطط العثماني ١٨٦٣، وقد هدم أخيراً سنة ١٨٦٣ ـ ١٨٦٤ نتيجة لتطبيق «بروتوكول ١٨٦٢».

ـ جامع الحاج عمر ـ عمر أفندي:

في جوار ميناء المدينة علىٰ الدانوب كان هذا الجامع منذ القرن السابع عشر، ويبدو أنه قد بني بعد زيارة شلبي للمدينة سنة ١٦٦٠ لأننا لا نجد له ذكراً في وصفه لبلغراد. وحول هذا الجامع لدينا إشارة حول أوقافه سنة ١٧٠٤، حيث يبدو اسم بانيه الحاج عمر. ومن المؤكد أن هذا الجامع قد استخدم لأغراض أخرىٰ خلال الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩، مما استدعى تجديده بعد عودة المدينة للعثمانيين. وخلال ١٧٤٣ ـ ١٧٤٤ قام دفتردار بلغراد عمر أفندي بتجديد هذا الجامع ولكنه لم يتمكن من تنظيم أوقاف له، مما تأخر فتحه إلىٰ سنة ١٧٤٩. وقد بقي هذا الجامع قائماً حتىٰ ١٧٨٩، حيث ورد في مخطط بروش، ويبدو أنه اندثر خلال الحكم النمساوي القصير ١٧٨٩ ـ ١٧٩١ أو خلال الحكم الصربي للمدينة ١٨٠٦ ـ ١٨١٣.

جامع غيواظ محمد باشا:

يعتبر هذا الجامع الوحيد المعروف إلى الآن في المحلة الواقعة على نهر السافا. يرىٰ البعض أنه كان كنيسة في الأصل. بعد نهاية الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩ تولى الصدر الأعظم هذا الجامع إلا أنه لم يترك وقفاً له، ولذلك بقي مغلقاً حتى سنة ١٧٤٣ حين تولّاه سكان المحلة إلى سنة ١٧٥٩، وبعد هذه السنة تولى الإنفاق عليه خليل بك ابن عيواظ محمد باشا. ويبدو هذا الجامع بصعوبة في بانوراما لبلغراد سنة ١٧٨٩. وقد هدم هذا الجامع في بداية القرن التاسع عشر بعد الانتفاضة الصربية وما أدت إليه من سقوط بلغراد تحت الحكم الصربي ١٨٠٦ ـ ١٨١٣.

ـ جامع الحاج فتح الله:

ورد ذكر هذا الجامع لأول مرة في نهاية القرن السابع عشر، ومن المؤكد أنه قد بني بعد ١٦٦٠ لأنه لم يرد لدىٰ شلبي في وصفه للمدينة. ومن المحتمل أن الحاج فتح الله قد جدّد بعد سنة ١٦٩٠ أحد الجوامع القديمة ولذلك بقي هذا الجامع علىٰ اسمه.

ـ جامع فرحات باشا

من أقدم جوامع بلغراد. يعود تاريخه إلى بداية العهد العثماني وبالتحديد إلىٰ سنوات ١٥٢١ ـ ١٥٣٦. ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ مع محلّة تحمل الاسم ذاته.

ـ جامع القازانجيّة:

من المؤكد أن هذا الجامع كان له اسم آخر لأن شلبي قد ذكر في وصفه لبلغراد محلّة بهذا الاسم ولكنه لم يذكر اسم الجامع فيها.

ـ جامع قدري باشا:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد سنة ١٦٦٠.

ـ جامع كارا مصطفىٰ:

ورد ذكره في بعض المصادر الألمانية على أنه قد بُني بمناسبة عبور

الصدر الأعظم كارا مصطفىٰ ببلغراد سنة ١٦٨٣ في طريقه لحصار ڤيينا. وحسب هذه المصادر فقد منح هذا الجامع للجزويت بعد منح سيطرة النمساويين علىٰ بلغراد سنة ١٦٨٨. ومن ناحية أخرىٰ لا تقدم المصادر العثمانية معطيات واضحة حول هذا الجامع باستثناء ذكر محلّته في نهاية القرن السابع عشر.

ـ جامع كالي:

من الجوامع القديمة نسبياً في بلغراد. ومن المؤكد أنه يعود إلىٰ أواخر القرن السابع عشر أو إلى بداية القرن الثامن عشر. وقد عايش فترة الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩ مما استدعىٰ تجديده بعد عودة المدينة للعثمانيين. وقد قام بتجديده سنة ١٧٣٩ محافظ بلغراد علي باشا. ومن المحتمل أن الجامع كان له اسم آخر يُعرف به، وقد ذكر بهذا الاسم لآخر مرّة سنة ١٨٣٦. وقد تعرض هذا الجامع لأضرار خلال الحكم الصربي ١٨٠٦ ـ ١٨١٣، حتىٰ إنه كان مهجوراً وفي طريقه إلىٰ الاندثار سنة ١٨٣٦، واندثر بسرعة بعد هذه السنة. ففي المخطط العثماني ١٨٦٣ ورد في موقعة تكية الشيخ حسن، التي هدمت بدورها سنة ١٨٦٣ نتيجة لتطبيق «بروتوكول ١٨٦٢». وكان هذا الجامع يقع بالقرب من جامع البيرق الذي بقي إلىٰ الآن في بلغراد.

ـ جامع كابيجي:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠، وحدّد موضعه في وصفه للسوق الطويل الذي يمتد ثلاثة آلاف خطوة ابتداء من هذا الجامع وحتىٰ سوق السمك. وفي مخطط بروش للمدينة ١٧٨٩ يبدو سوق السمك وفي نهايته إشارة إلىٰ وجود جامع. وربما يكون هذا الجامع قد هدم خلال الحكم الصربي للمدينة ١٨٠٦ ـ ١٨١٣ لأنه اندثر بعد هذا التاريخ، بينما نجد في موقعه في المخطط العثماني ضريح الشيخ الحاج محمد.

ـ جامع الكزلار آغا (جامع درغوت بك سابقاً):

يعتبر الجامع الأصلي من الجوامع القديمة في بلغراد إذ يعود تاريخه

إلىٰ نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، وقام بتشييده في ذلك الحين سنجق بك سمدرڤو درغوت بك. ذكره شلبي في وصفه لبلغراد سنة ١٦٦٠، وفي ١٦٦٣ وصفه الرحالة اتندورف كأحد الجوامع المعروفة في المدينة. وقد تعرض الجامع لأضرار خلال الهجوم النمساوي علىٰ بلغراد ١٦٨٨ وقام العثمانيون بإصلاحه بعد ذلك. وخلال الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ استخدم هذا الجامع أولاً كمخزن عسكري وبقي على هذه الحالة إلىٰ سنة ١٧٢٦، حين تم تحويله إلىٰ كنيسة كاثوليكية. وبعد عودة المدينة للعثمانيين قام الكزلار آغا بشير آغا بتجديد هذا الجامع سنة ١٧٤١ وتنظيم وقف خاص له، وأصبح منذ ذلك الحين يعرف باسم «جامع الكزلار آغا». وخلال الحكم النمساوي القصير ١٧٨٩ ـ ١٧٩١ تم تحويله ثانية إلىٰ كنيسة كاثوليكية، وعاد جامعاً مع عودة المدينة للعثمانيين. ولكن فيما بعد، خلال الحكم الصربي ١٨٠٦ ـ ١٨١٣، حوّل هذا الجامع إلىٰ كنيسة أرثوذكسية بإضافة جرس علىٰ المئذنة دون أية تعديلات أخرىٰ، وعاد أخيراً للمسلمين. وبقي هذا الجامع في موقعه تحت تصرف المسلمين إلى سنة ١٨٦٣، حيث ورد في المخطط العثماني للمدينة، واستناداً إلى هذا يمكن تحديد موقعه قرب معهد الكيمياء حالياً. وبعد «بروتوكول ١٨٦٢» بقي الجامع مهجوراً إلى أن هدم سنة ١٨٧٨. وقد بقي لنا من هذا الجامع لوحة تمثله بوضوح (انظر الملحق الثاني، رقم ٥) وصورة فوتوغرافية نادرة تعود إلى حوالي سنة ١٨٦٠ (انظر الملحق الثاني، رقم ٦).

ـ **جامع الحاج كوتشوك حسين:**

ورد ذكره لأول مرة في نهاية القرن السابع عشر، ومن المؤكد أنه قد بُني بعد ١٦٦٠ لأنه لم يرد له ذكر لدىٰ شلبي.

ـ **جامع كوتشوك لازار باشا:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ **جامع الحاج كوتشوك ولي:**

ذكره لأول مرة شلبي في وصفه لبلغراد وحدّد موقعه في القسم المنخفض من القلعة.

ـ جامع كوسيكي بك

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠، وورد ذكره لاحقاً في بعض المصادر العثمانية إلىٰ نهاية نالقرن السابع عشر.

ـ جامع لاز أوغلي (جامع الحاج مصطفىٰ سابقاً)

يبدو هذا الجامع في المخطط العثماني ١٨٦٣، بينما تبرز آثار بناءٍ في موقعه في مخطط المهندس بروش ١٧٨٩. ويبدو أن هذا الجامع قد انهار خلال ذلك الوقت نتيجة للهجوم النمساوي على بلغراد، ثم أعيد تجديده بعد عودة المدينة للعثمانيين ١٧٩١. واستناداً إلى المخطط العثماني كان هذا الجامع يقع في شارع السابع من تموز الحالي. وقد هدم هذا الجامع كغيره في العقد السابع للقرن الماضي.

ـ جامع الحاج محمد:

ذكره الرحالة أوتندورف في وصفه لبلغراد سنة ١٦٦٣، وربما يكون ذلك الذي ذكره شلبي سنة ١٦٦٠ باسم «جامع محمد آغا».

ـ جامع محمد آغا:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ جامع الحاج محمود:

بني هذا الجامع بعد نهاية الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩. وقد قام بتشييده بعد عودة المدينة للعثمانيين لاز حاجي محمود من قواد الانكشارية. وذكر هذا الجامع لأول مرة سنة ١٧٧٧، بينما ورد ذكر أوقافه سنة ١٧٨٧، وبعد سنتين ١٧٨٩ أشار إليه مخطط بروش كـ «جامع جديد». واستمر هذا الجامع في موقعه تحت تصرف المسلمين حتىٰ ١٨٦٣، حيث ورد ذكره في المخطط العثماني. وقد هدم هذا الجامع كغيره في العقد السابع للقرن الماضي.

ـ جامع السلطان محمود

بني هذا الجامع في عهد السلطان محمود الثاني ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤،

حين تم استرداد بلغراد من النمساويين بعد فترة حكمهم الطويلة ١٧١٧ ـ ١٧٣٩. وقد أقيم هذا الجامع في القسم المرتفع من القلعة، بالقرب من ضريح الداماد أحمد باشا الذي ما يزال في موقعه إلىٰ الآن. وكان من أكبر وأجمل جوامع بلغراد، وقد اهتم به العثمانيون طيلة وجودهم في القلعة. وبعد التنازل عن القلعة للحكومة الصربية ١٨٦٧ بقي الجامع محافظاً علىٰ رونقه ولم يتعرض لما أصاب بقية الجوامع حتىٰ ١٨٧٦، حين دخلت صربيا في الحرب ضد الامبراطورية العثمانية. ففي تلك السنة استخدم أولاً كورشة لإنتاج الذخيرة خلال الحرب، وبعد انتهاء الحرب واستقلال صربيا ١٨٧٨ هدمت مئذنته وتم تحويله إلىٰ مستشفىٰ عسكري، وبعد ذلك إلىٰ مخزن للذخيرة. وبعد فترة قصيرة تم التخلص من هذا الجامع بتفجيره سنة ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥، وفُسّر هذا في ذلك الحين علىٰ أنه مجرد «حادث». ومن هذا الجامع بقي لنا صورة فوتوغرافية نادرة في الأيام الأخيرة للوجود العثماني في بلغراد (انظر الملحق الثاني، رقم ٩).

ـ جامع السلطان مصطفىٰ (جامع الكتخدا فرحات سابقاً):

يعتبر الجامع الأصلي من أقدم الجوامع في بلغراد. كان في الأصل مسجداً كما ورد في إحصاء ١٥٦٠، وأصبح جامعاً بعد عدة سنوات حسب إحصاء ١٥٧٢. وكان يقع في سوق بيت بازار ولهذا ورد ذكره عند شلبي باسم «جامع بيت بازار». وقد تعرض هذا الجامع لأضرار بليغة أثناء الهجوم النمساوي علىٰ بلغراد ١٦٨٨، وتم تجديده بعد عودة العثمانيين للمدينة ١٦٩١. ومن المؤكد أن النمساويين قد استخدموا هذا الجامع لأغراض مختلفة خلال حكمهم لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩، إذ أنه جدّد مرة أخرىٰ وأصبح يدعىٰ لفترة من الزمن باسم «جامع الحاج علي» الذي يبدو أنه قام بتجديده. ومع هذا فقد اشتهر الجامع أيضاً في النصف الثاني للقرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر باسم «جامع السلطان مصطفىٰ»، وبهذا الاسم ذكر أخيراً في المخطط العثماني ١٨٦٣. وبعد «بروتوكول ١٨٦٢» أصبح الجامع مهجوراً وبقي على هذه الحالة حتىٰ ١٨٧٠ حين قام برسمه المهندس يوڤانوفيتش

Jovanović، ومن المؤكد أن الجامع قد هدم بعد ١٨٧٨ (انظر الملحق الثاني، رقم ١٢).

ـ جامع مصطفىٰ تشاووش:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ مع محلة تحمل الاسم ذاته، وقد وردت محلة بهذا الاسم أيضاً في مخطط بروش ١٧٨٩.

ـ جامع الحاج مصطفى تتبجي:

من جوامع بلغراد القديمة حيث ورد ذكره لأول مرة في إحصاء ١٥٦٠.

ـ جامع المصلىٰ:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠ مع محلّة تحمل الاسم ذاته، ومن المؤكد أن هذا الاسم جاء لقرب الجامع والمحلّة من «المصلىٰ» Musala الذي كان يقع قرب حديقة كالمغدان الحالية.

ـ الجامع المهجور (جامع عين خان بك سابقاً):

من أقدم جوامع بلغراد إذ يعود تاريخه إلى حوالي ١٥٨٥، وقد قام بتشييده حينئذ مراقب بلغراد عين خان بك. وقد ورد ذكره لاحقاً لدىٰ شلبي ١٦٦٠ في محلة تحمل اسمه أيضاً. وكان من أجمل وأشهر الجوامع، وكان يعتبر تحفة فنية من الحجر المصقول. وقد تعرض الجامع لأضرار خلال الهجوم النمساوي علىٰ بلغراد ١٧١٧، ومن المؤكد أنه قد لحقه ما تعرضت له بقية الجوامع خلال الحكم النمساوي ١٧١٧ ـ ١٧٣٩. وبعد عودة بلغراد للعثمانيين قاموا بتجديده سنة ١٧٦٦ وأصبح بعد هذا من أغنىٰ الجوامع بالزخارف الداخلية. وفي بداية القرن التاسع عشر تعرض الجامع لأضرار بليغة خلال الهجوم الصربي علىٰ بلغراد سنة ١٨٠٦. ففي ذلك الحين قام الثوار بهدم الجدران الخارجية وتحطيم ما يمكن تحطيمه في الجامع وحاولوا هدم قبّته أيضاً إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك. وهناك ما يفيد أن زعيم الانتفاضة الصربية كارا جورج أسقط المئذنة بمدفعه. وقد بقي الجامع علىٰ هذه الحالة خلال الحكم الصربي لبلغراد ١٨٠٦ ـ ١٨١٣ واشتهر منذ ذلك الحين باسم

«الجامع المهجور». وبعد استقرار الوضع نتيجة للخط الشريف ١٨٣٠ ١٨٣٣ أراد وزير بلغراد إصلاح الجامع إلا أن الأمير ميلوش عارض ذلك علىٰ أساس أنه خارج حدود المدينة. وقد بقي الجامع علىٰ هذه الحالة حتىٰ العقد السادس من القرن الماضي، حين أصبح مأوىٰ للحيوانات ومكاناً تتراكم فيه القمامة. وقد هدم الجامع أخيراً ليلة ١٧ أيار ١٨٧١، ويمكن تحديد موقعه الحالي في زاوية الحديقة أمام مبنىٰ البرلمان اليوغسلافي. وقد بقي لنا من هذا الجامع لوحة نادرة تمثّله في أيامه الأخيرة وهو في حالة يرثىٰ لها (انظر الملحق الثاني، رقم ١٧).

- **جامع الميناء:**

من أقدم جوامع بلغراد حيث ورد ذكره في إحصاء ١٥٣٠. وكان هذا الجامع يتميز بمتانته، حيث أنه بُني من الغرانيت، وبمنارته الضخمة والعالية. ويبدو أن متانة الجامع ساعدته علىٰ مقاومة التطورات التي حصلت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وبقي هذا الجامع في الذاكرة بسبب ما تعرض له خلال حوادث حزيران ١٨٦٢. فبعد الهجوم الصربي في مساء ٣ حزيران التجأ إلى هذا الجامع الكثير من المسلمين مع النساء والأطفال لحماية أنفسهم. وقد حاول المهاجمون إحراق الجامع لإرغام المسلمين علىٰ الاستسلام، ولكن متانة الجامع حالت دون ذلك كما أنه هبت في تلك الليلة رياح معاكسة من نهر السافا تحمل في طياتها رذاذ الماء. ونتيجة لهذا أرجأ المهاجمون هجومهم إلىٰ الصباح، إلا أن المسلمين تمكنوا من الانسحاب خلال الليل واللجوء إلىٰ قلعة المدينة. وبعد «بروتوكول ١٨٦٢» أصبح الجامع مهجوراً وهدم أخيراً في نهاية القرن التاسع عشر وأقيم في موضعه بداية الجسر المُجَنْزر الذي كان يربط بين ضفّتي نهر السافا، ويمكن تحديد موقعه الآن علىٰ وجه التقريب في المكان الذي يبدأ منه شارع الأخوة كرسمانوڤيتش Krsmanović.

- **جامع الحاج نذير:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد مع محلّة تحمل الاسم ذاته.

ـ جامع هابيل أفندي:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ جامع الحاج ولي:

من أقدم جوامع بلغراد، إذ أنه يعود إلى بداية العهد العثماني وورد ذكره في إحصاء ١٥٦٠. وبعد قرن من الزمن (١٦٦٠) ذكره شلبي في وصفه لبلغراد وحدّد موقعه في القسم المنخفض من القلعة.

ـ جامع يحيىٰ باشا (جامع العمارة سابقاً):

يعتبر الجامع الأصلي من أقدم الجوامع في بلغراد. وقد قام بتشييد الجامع سنة ١٥٤٨ ـ **١٥٤٩** محمد باشا يحيىٰ لي سنجق بك سمردڤو. ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ونوّه بازدحام المصلين فيه لكونه يقع في السوق التحتاني حيث كانت حركة البيع والشراء دائمة. وقد زار شلبي هذا الجامع ونقل لنا أبيات الشاعر زيني علىٰ لوحة الجامع التي تؤرخ سنة تشييده **٩٥٥** هـ = ١٥٤٨ ـ **١٥٤٩**. وفي **١٦٦٣** أشاد به الرحالة أوتندورڤ بشكل خاص كـ «جامع بديع الجمال». وقد اشتهر هذا الجامع باسم «العمارة»، المطعم الشعبي المجاني، وليس باسم بانيه محمد باشا. ومن المؤكد أن هذه العمارة تعود إلى فترة أقدم، إذ أنه منذ سنة **١٥٣٦** كانت «محلة العمارة» قائمة في بلغراد. ويبدو أن هذا الجامع كان يتمتع بقيمة خاصة إذ دفن في جواره بعض الشخصيات المعروفة في ذلك الوقت في بلغراد كشيخ الإسلام عبد الرحمن أفندي والعالم منيري البلغرادي إلخ.

في بداية الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ ـ **١٧٣٩** تم تحويل هذا الجامع إلىٰ مخزن عسكري للبارود وعتاد المدفعية وبقي علىٰ هذه الحالة حتىٰ ١٧٢١ حين مُنح إلىٰ الفرنسيسكان الذين قاموا بتحويله إلى كنيسة لهم. وبعد عودة العثمانيين للمدينة تم تجديد هذا الجامع في سنة **١٧٤١** وأصبح يعتمد علىٰ وقف يحيىٰ باشا خطيب زاده مما جعله يشتهر منذ ذلك الحين باسم «جامع يحيىٰ باشا». وورد ذكره بهذا الاسم في الوثائق المختلفة

خلال القرن التاسع عشر، مع أنه أشتهر لدىٰ الشعب أيضاً باسم «جامع الجنازير» لوجود السلاسل حوله. وبقىٰ الجامع تحت تصرف المسلمين إلىٰ «بروتوكول ١٨٦٢»، حيث أصبح مهجوراً لفترة من الزمن إلى أن هدم خلال العقد السابع للقرن الماضي. وقد بقيت لنا من هذا الجامع لوحة نادرة تمثله في أيامه الأخيرة (انظر الملحق الثاني، رقم ١٦).

٢ ـ المساجد:

كانت بلغراد تحتوي علىٰ عدد كبير من المساجد في القرون الثلاثة الأولىٰ للحكم العثماني، وخاصة خلال القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر. وبالمقارنة مع الجوامع كانت المساجد أقدم وأبسط ولا تقام فيها صلاة الجمعة أو العيد ولا تحتوي غالباً علىٰ مئذنة تلفت النظر إليها. وقد اندثر الكثير من المساجد نتيجة الحروب، بينما تم توسيع وتجديد بعضها وتحويله إلىٰ جوامع.

ـ مسجد أبو بكر أفندي:

ورد ذكره لأول مرة في نهاية القرن السابع عشر، وهذا يعني أنه قد بني بعد ١٦٦٠ لأن شلبي لم يذكره في وصفه لبلغراد.

ـ مسجد بابا محمود:

من أقدم مساجد بلغراد. ذكر لأول مرة في إحصاء ١٥٧٢، وورد ذكره أيضاً في بعض المصادر العثمانية إلىٰ نهاية القرن السابع عشر. ويبدو من الاسم أن بابا محمود كان شيخ إحدىٰ الطرق الصوفية في بلغراد خلال ذلك الوقت.

ـ مسجد بازار باشا:

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ مسجد بايزيد:

من أقدم مساجد بلغراد. ورد ذكره لأول وآخر مرة في إحصاء ١٥٦٠.

ـ **مسجد الحاج دراق:**

ورد ذكره لأول مرة سنة ١٧١٦، ومن المؤكد أنه اندثر نتيجة للتغيرات التي حصلت خلال الحكم النمساوي للمدينة ١٧١٧ ـ ١٧٣٩.

ـ **مسجد ديده زاده:**

ورد ذكره لأول مرة في إحصاء ١٥٧٢.

ـ **مسجد الحجر:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠، ويبدو أنه سمّي هكذا لكونه مبنياً من الحجر.

ـ **مسجد جمان خاتون:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ **مسجد السلطان:**

ورد ذكره سنة ١٦٣٠ وكان يقع في البرج العالي.

ـ **مسجد سليمان خان:**

ورد ذكره لدى شلبي فقط وحدد موقعه في القسم المنخفض من القلعة.

ـ **مسجد الحاج سوجا:**

من أقدم مساجد بلغراد. ذكر لأول مرة في إحصاء ١٥٧٢، وذكره شلبي أيضاً في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ **مسجد شاملو حوجا:**

من أقدم مساجد بلغراد. ورد ذكره لأول مرة في إحصاء ١٥٧٢.

ـ **مسجد الحاج عثمان:**

ورد ذكره لأول مرة سنة ١٧١٦، ومن المؤكد أنه اندثر نتيجة للتغيرات التي حصلت خلال الحكم النمساوي لبلغراد ١٧١٧ ـ ١٧٣٩.

ـ **مسجد الحاج علي طيره:**

من أقدم مساجد بلغراد. ذكر لأول مرة في إحصاء ١٥٣٦، وورد ذكره أيضاً في إحصاء ١٥٨٢ مع تحديد موقعه في بولمه حصار، وبهذا الاسم يذكره شلبي أيضاً في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ **مسجد القبودان:**

ذكره لأول مرة شلبي في وصفه لبلغراد، وورد ذكره في بعض المصادر العثمانية إلىٰ نهاية القرن السابع عشر.

ـ **مسجد كازاقلي:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ **مسجد الكستنجي:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ **مسجد كوتشوك بازار باشا:**

ذكره شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

ـ **مسجد الحاج كوتشوك مصطفىٰ:**

من أقدم مساجد بلغراد. ذكر لأول مرة في إحصاء ١٥٧٢.

ـ **مسجد الحاج مصطفىٰ كوتشو جوغلو:**

من أقدم مساجد بلغراد. ذكر لأول مرة في إحصاء ١٥٧٢.

ـ **مسجد موسىٰ باشا:**

من المساجد القديمة في بلغراد. قام بتشييد هذا المسجد بيلربك بودا موسىٰ باشا خلال ١٦٣٢ ـ ١٦٤٣، وذكره فيما بعد شلبي في وصفه لبلغراد ١٦٦٠.

٣ ـ المصلىٰ:

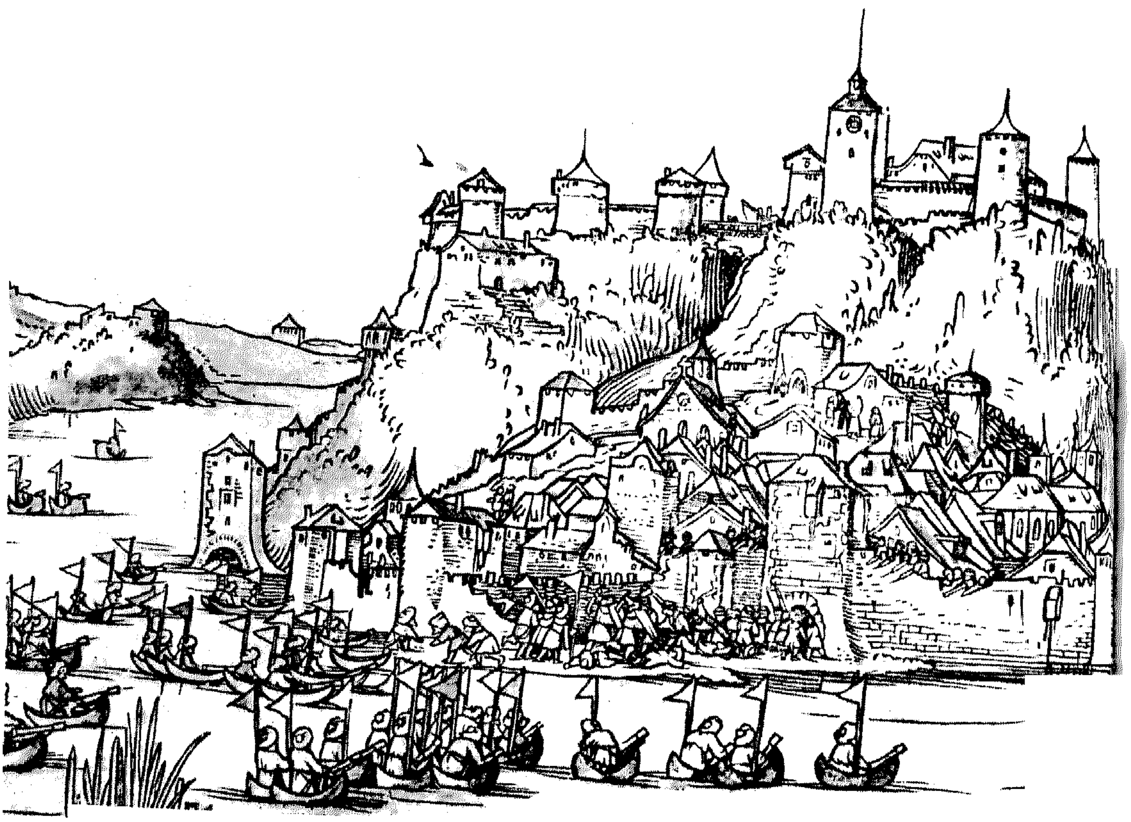
المصلىٰ Musala كان عبارة عن مكان فسيح ومسوّر لأداء صلاة العيد. وكان هذا المصلىٰ موجوداً بالتأكيد خلال زيارة شلبي لبلغراد، حيث أنه يذكر

محلة وجامع المصلىٰ، إلا أنه لم يتعرض له بالذكر أو الوصف مع أنه يذكره في وصفه لمدينة أوجيتسه Užice قرب بلغراد. ويبدو هذا المصلىٰ بوضوح في المخطط الإيطالي لبلغراد سنة ١٦٨٨، حيث يبرز اتساعه بالنسبة لحجم المدينة. وقد اندثر هذا المصلىٰ نتيجة للتغييرات الكبيرة التي طرأت علىٰ بلغراد خلال الحكم النمساوي للمدينة ١٧١٧ ـ ١٧٣٩.

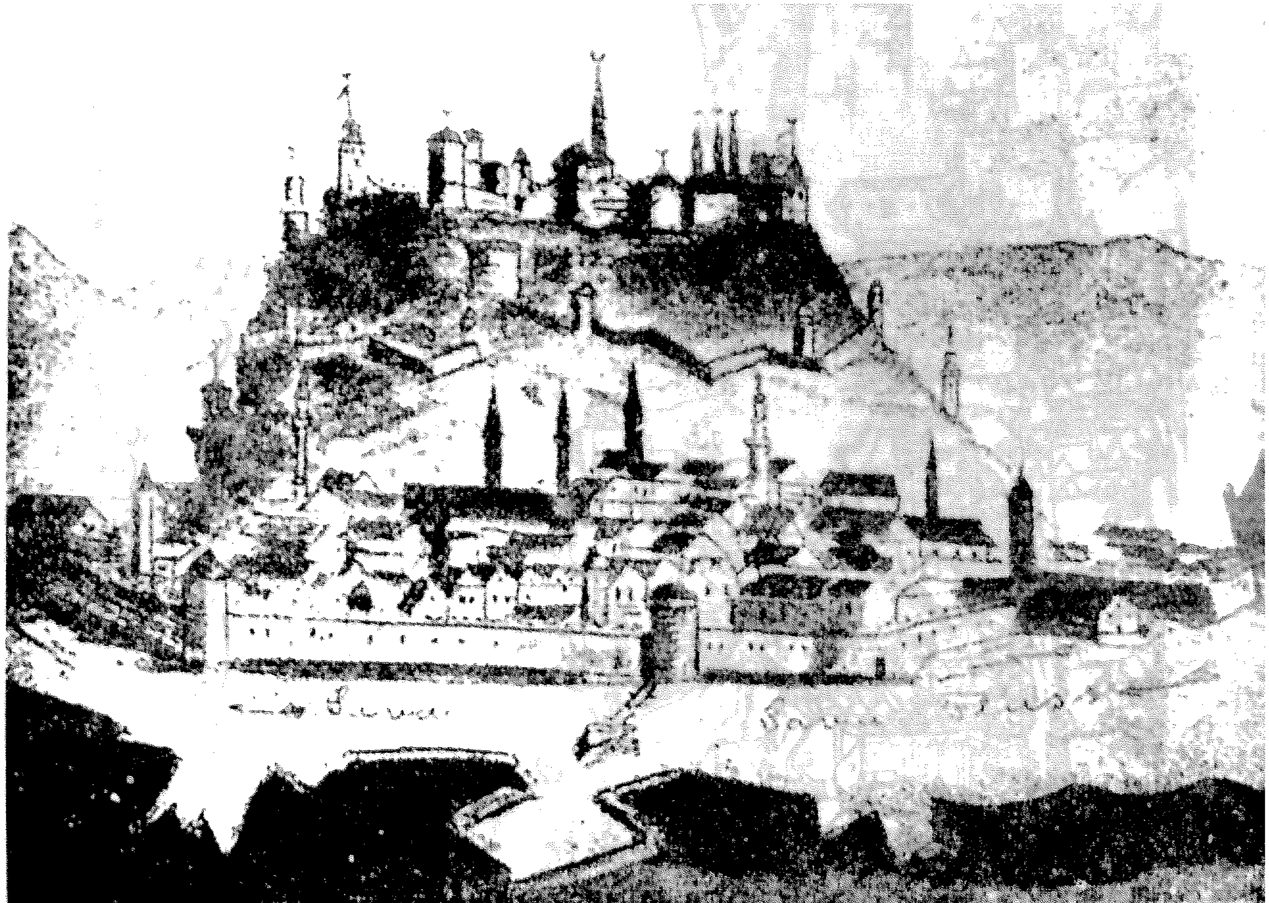
* * *

الملحق الثاني

لوحات وصور من بلغراد الإسلامية

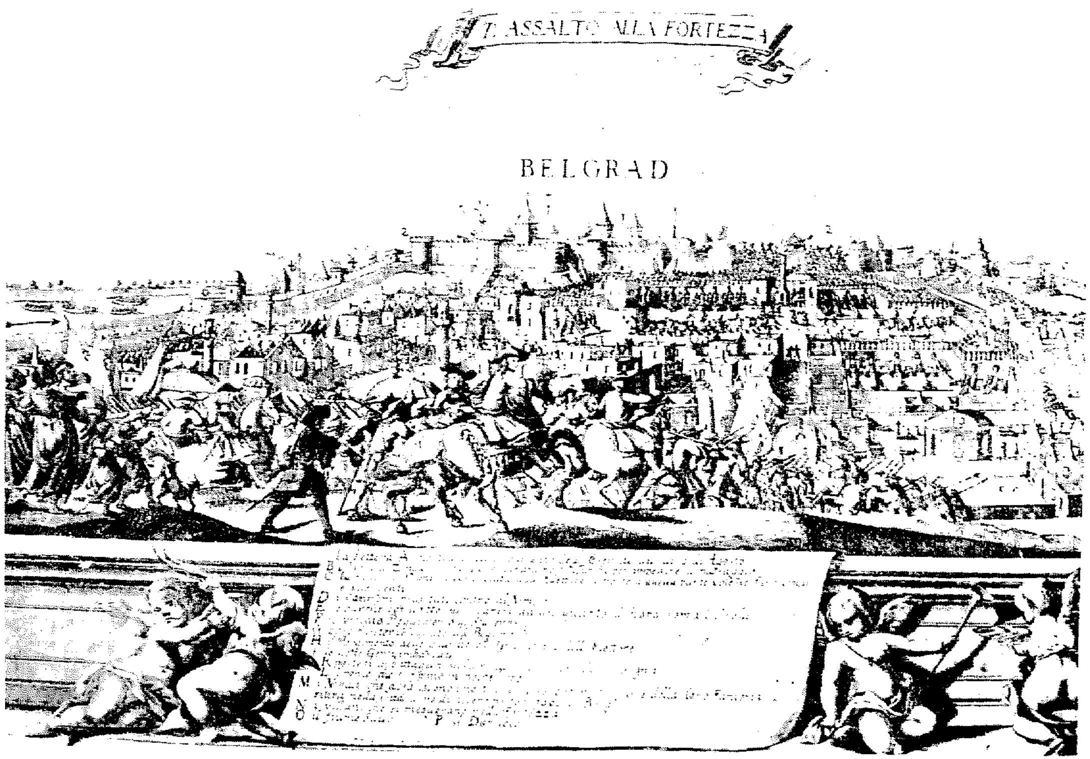


لوحة تمثّل الحصار العثماني لبلغراد سنة ١٥٢١ ولخطة اقتحامها، وتبدو بلغراد كما كانت قبل الفتح العثماني لها.

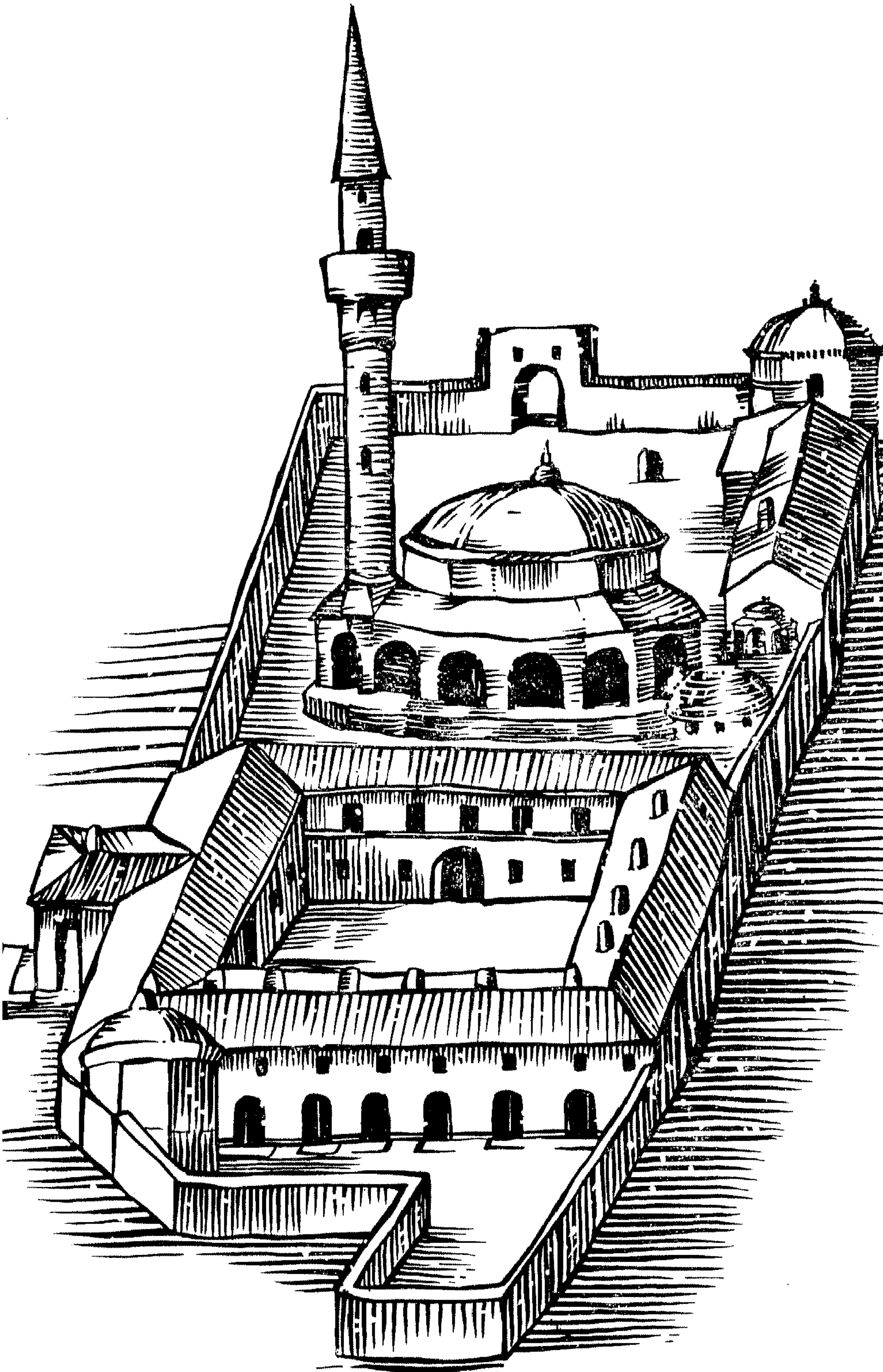


بلغراد سنة ١٥٢١، في السنة الأولى للحكم العثماني، وتبدو فيها الآن مآذن عدة جوامع في القسم المرتفع وفي القسم المنخفض.

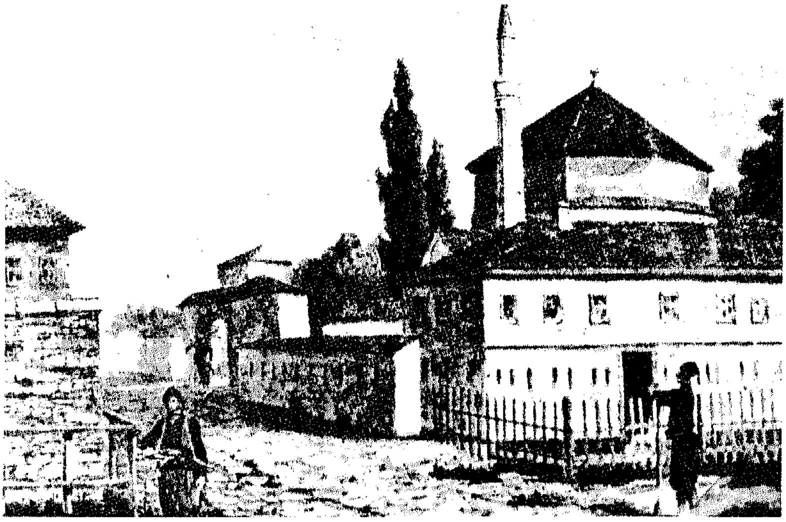
جوامع في القسم المرتفع وفي القسم المنخفض.



الاقتحام النمساوي لبلغراد بعد قصفها العنيف في ١٦٨٨، ويبدو في مقدمة اللوحة المآذن المقصوفة.



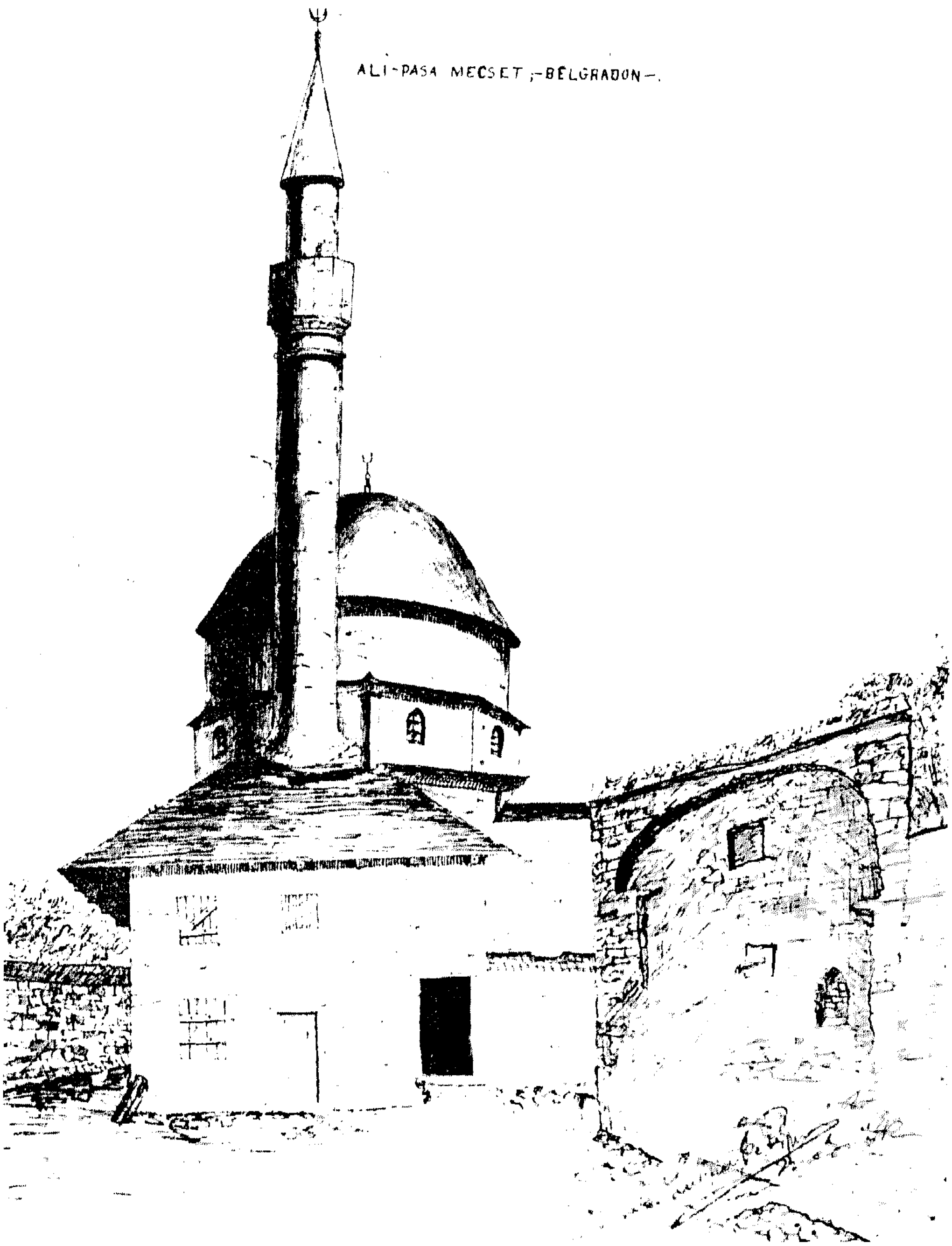
مستشفى مع جامع إبراهيم بك (١٨٦٦)



جامع الكزلار آغا كما يبدو في أواخر العهد العثماني (حوالي ١٨٦٠) وقد ظهر شرطي عثماني علىٰ اليمين وشرطي صربي علىٰ اليسار بملامح التحدّي.



جامع الكزلار آغا كما يبدو في صورة فوتوغرافية نادرة لبلغراد (حوالي ١٨٦٠).



جامع علي باشا في لوحة من سنة ١٨٦٠



لوحة تمثل اليوم الأخير للوجود العثماني (تسليم مفاتيح قلعة بلغراد إلى الجانب الصربي حزيران ١٨٦٧) ويبدو في آخر اللوحة جامع.



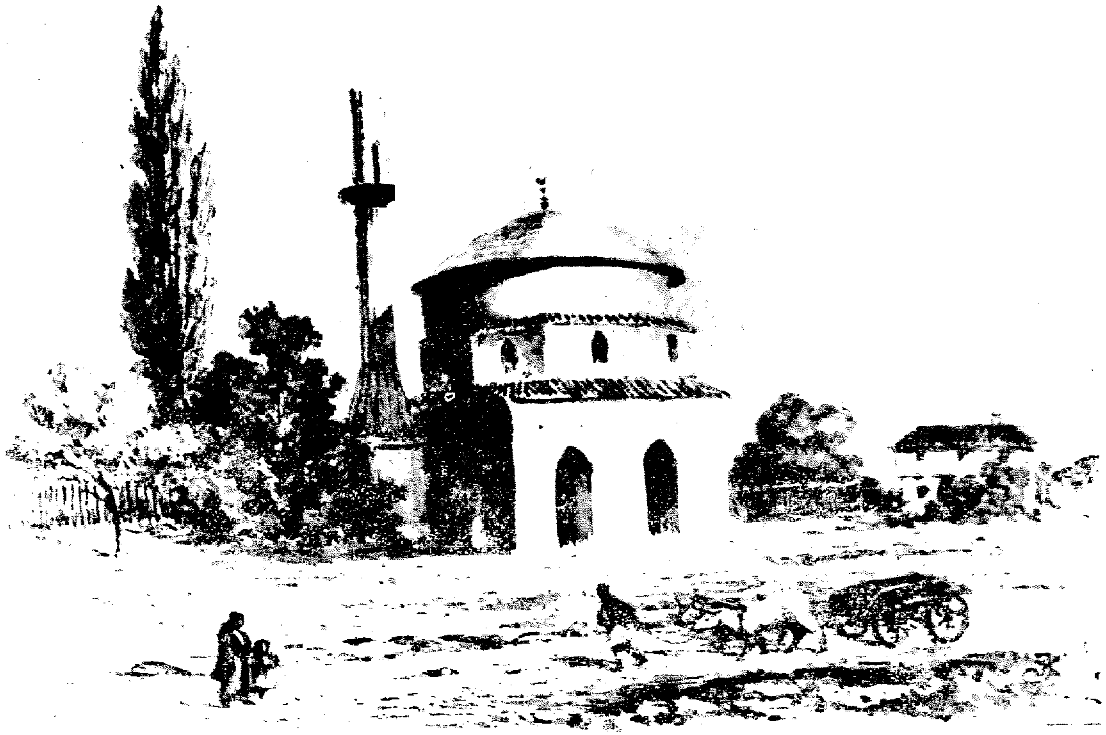
جامع السلطان محمود في القسم المرتفع من القلعة في صورة فوتوغرافية نادرة تسجل استعداد القوات العثمانية للرحيل عن بلغراد (حزيران ١٨٦٧).



جامع سعيد حسن باشا في القسم المنخفض من القلعة في السنة الأخيرة للوجود العثماني (١٨٦٧)



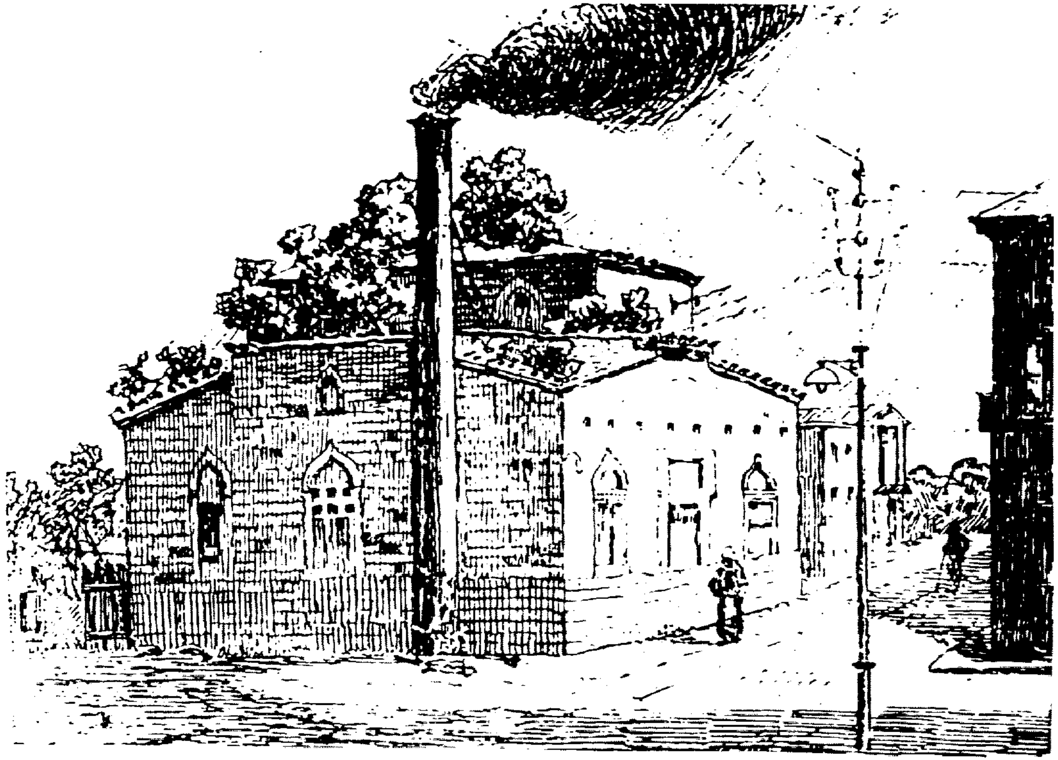
جامع سعيد حسن باشا كما يبدو في بداية القرن العشرين بعد أن هدمت مئذنته وتم تحويله إلى مخزن عسكري



جامع السلطان مصطفىٰ كما يبدو في أيامه الأخيرة سنة ١٨٧٠



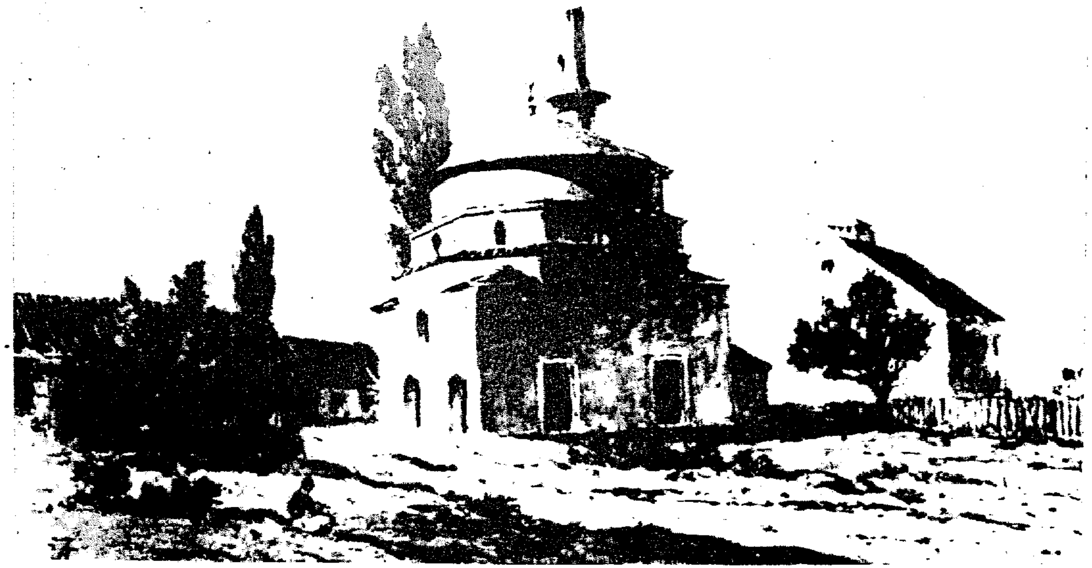
جامع بيرم بك كما يبدو بعد ثلاثة سنوات من ترحيل المسلمين عن بلغراد (حوالي ١٨٦٥).



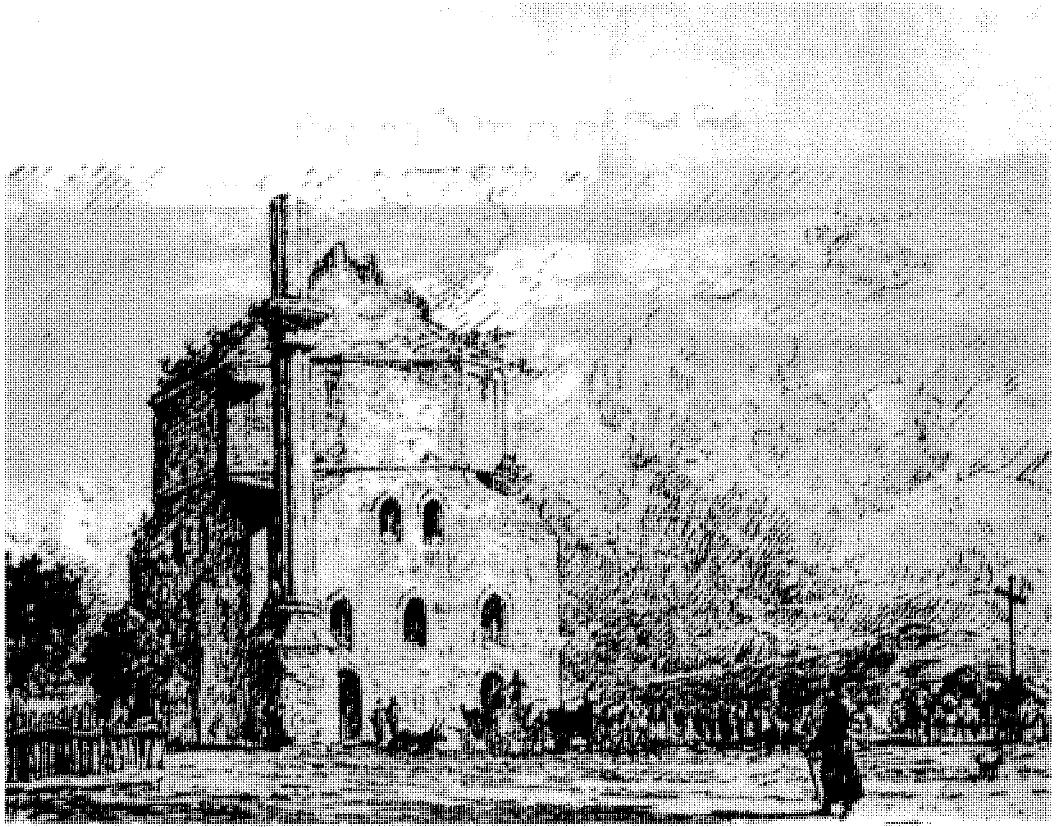
لوحة نادرة لجامع بيرم بك بعد عدة سنوات من تحويله إلى معمل لإنتاج الغاز (حوالي ١٨٧٥)



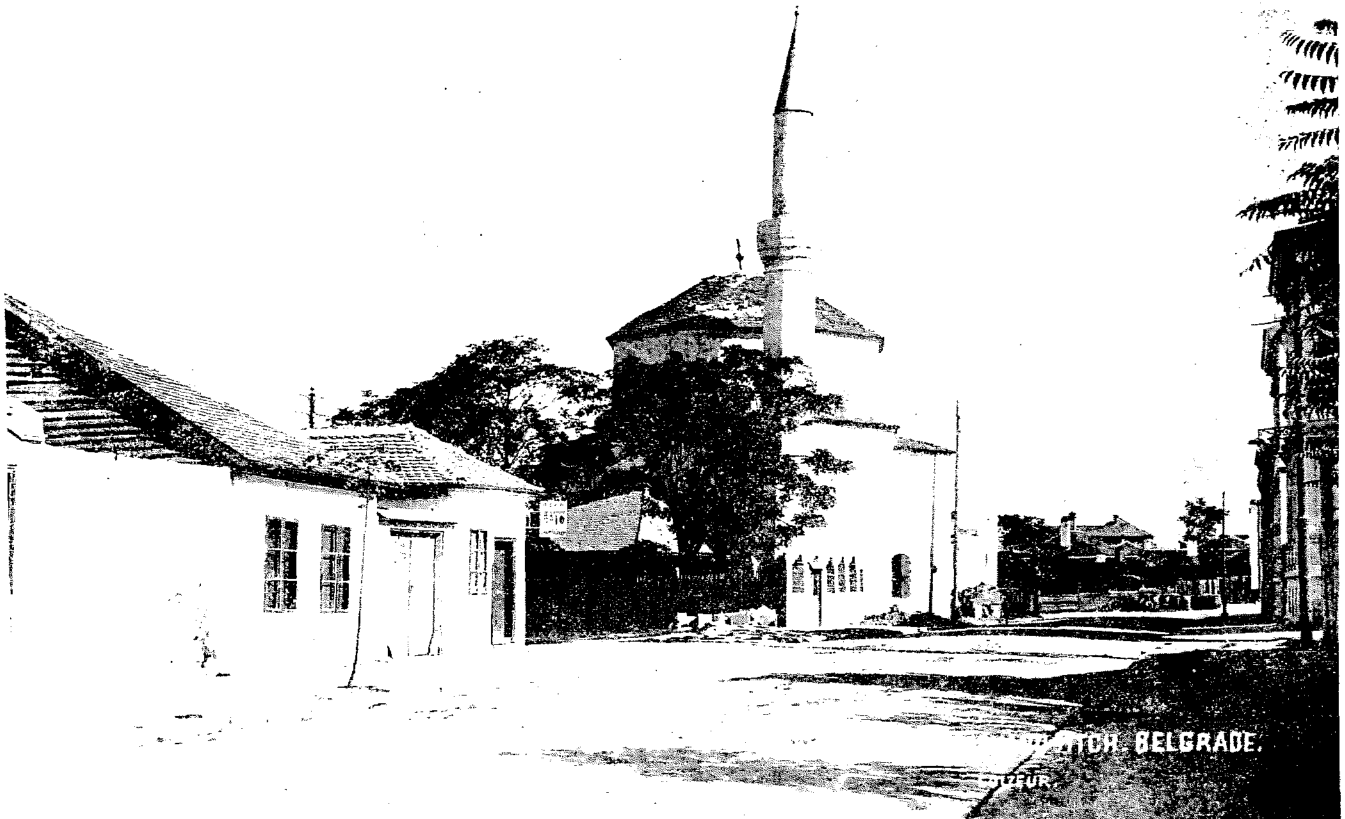
جامع الدفتردار في صورة فوتوغرافية نادرة تعود إلى سنة ١٨٧٦



جامع يحيىٰ باشا كما يبدو في أيامه الأخيرة



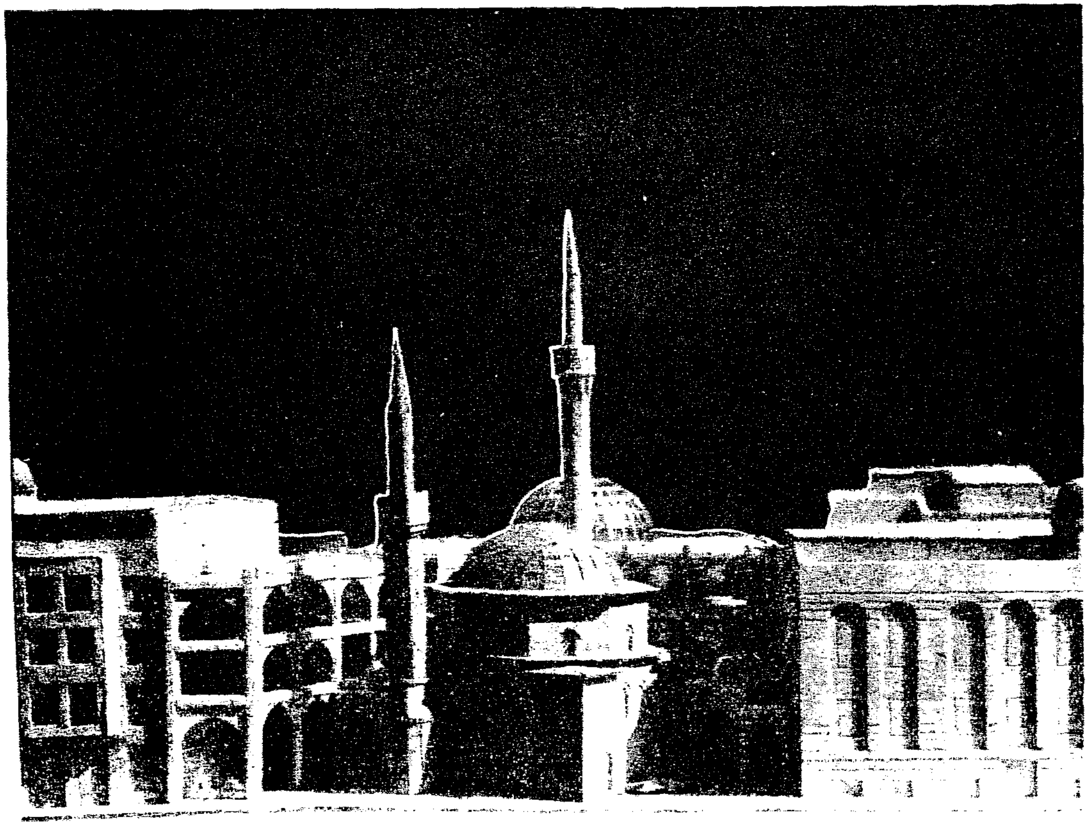
الجامع المهجور كما يبدو في أواخر أيامه



جامع البيرق، الوحيد الذي بقي من جوامع بلغراد، كما يبدو في أوائل هذا القرن.



جامع البيرق كما يبدو الآن بين أبنية المدينة



جامع البيرق كما يبدو في مخطط توسيعه الذي تنتظر الموافقة عليه الآن الجماعة الإسلامية في بلغراد

كلمة أخيرة

كان العمل في مخطوطة هذا الكتاب ـ وكما يبدو من المقدمة ـ قد انتهى في أيلول **١٩٨٣**. وقد قُدم لأول مرة في حزيران **١٩٨٤** إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليسكو) في تونس بعد موافقة مبدئية على نشره. ولكن مخطوطة الكتاب بقيت هناك أكثر من سنتين، إلى أن تمَّ استردادها في صيف ١٩٨٦.

وهكذا تكون في الواقع قد مرت حوالي أربع سنوات على كتابة مخطوطة الكتاب، باستثناء ملاحظتين أضيفتا في بداية عام ١٩٨٤.

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال هذه السنوات الأربعة صدرت بعض الكتب والدراسات المختلفة التي لا بد أن تُأخذ بعين الاعتبار في طبعة أخرى من هذا الكتاب.

وختاماً أشكر الصديق الأستاذ محمود الأرناؤوط الذي شجعني على التفكير بتقديم الكتاب للنشر من جديد، وقام بقراءته قبل تقديمه للطبع. والصديق الدكتور خالد عبد الكريم جمعة الذي تبنى نشره.

كانون الثاني ١٩٨٧ — الدكتور محمد موفاكو

* * *

مصادر ومراجع مختارة

بالإضافة إلى عنوانات الكتب العربية، التي ورد ذكرها في الكتاب بشكل عابر، نثبت فيما يلي أهم المصادر والدراسات في اللغة الصربوكراوتية:

- **Al - Buhi Kamal**, Arapski radovi jugoslovenskih pisaca, dok. desertacija, Beograd 1963.
- **Beograd**, Enicklopedija Jugoslavije I, drugo izdanje, Zagreb 1980.
- **Beograd Kroz Vekove**, Beograd 1954.
- **Ćelebi Evlija**, Puopis, Prevod I Komentar Hazima Ŝabanovića, Sarajevo 1979.
- **Ĉubrilović dr. Vasa**, Grad pred srpsku revoluciju 1804, Istorija Beograda II, Beograd 1974.
- **Ĉubrilović dr. Vasa**, Srpska revolucija 1804 - 1815, Istorija Beograda II, Beograd 1974.
- **Degan Vladimir - Duro**, Medunarodnopravno uredenje položaja muslimana sa osvrtom na uredenje položaja drugih vjerskih I narodnosnih skupina na podruĉju Jugoslavije, Prilozi Instituta Za istoriju radničkog pokreta, 8, Sarajevo 1972.
- **Dordević Života**, Ĉukur - Ćesma 1862, studija O Odlasku Turaka Iz Srbije, Beograd 1983.
- **Durdev Branislav**, Uloga crkve U starijoj srpskog naroda, Sarajevo 1964.
- **Durić - Zamola Divna**, Javni Objekti turske arhitekture U Beogradu, Oslobodenje Gradova U Srbiji od Turaka 1862 - 1867, Beograd 1970.
- **Durić - Zamola Divna**, Prilog Pznavanju beogradskih džamija, Prilozi Za orijentalnu filologiju XIV - XV, Sarajevo 1969.
- **Durić - Zamola Divna**, Saĉuvani Lik Beograda na fotografijama A. Jova-

novića, I. Gromana I M. Jovanovića, Godišnjak grada Beo⁻⁻ada XIV, Beograd 1967.
- **Hammer Joseph Von**, Historija turskog / osmanskog/ carstva, I - II, Zagreb 1979.
- **Hadžić Abdulah I., Bajrakli džamija U Beograd, Godišnjak grada Beograda IV, Beograd 1957.**
- **Istorija države I prava jugoslovenskih naroda**, Beograd 1974.
- **Jovanović Dragoljub**, Beograd U turskom periodu, Oslobodenje gradova U Srbiji od Turaka 1862 - 1867, Beograd 1970.
- **Kalić - Mijušković Jovanka**, Beograd U srednim veku, Beograd 1967.
- **Kalić - Mijušković dr. Jovonaka**, Borbe Turskog carstva I Ugarske oko Beograda, Istorija Beograda I, Beograd 1974.
- **Kapper Sigfrid**, Po našem podunavlju I, Beograd 1934.
- **Ljubinković dr. Mirjana**, Ka problemu slovenizacije Beograda I severne Srbije, Godišnjak grada Beograda XXV, Beograd 1978.
- **Nestorović Bogdan**, Narodno pozorište U Beogradu, Godišnjak grada Beograda III, Beograd 1956.
- **Nikić Ljubomir**, Autobiografija Anastasa Jovanovića, Godišnjak Museja grada Beograda III, Beograd 1956.
- **Nikić Ljubomir**, Džamije U Beogradu, Godišnjak grada Beograda V, Beograd 1958.
- **Nikić Ljubomir**, Prilozi Beogradskih džamije, Godišnjak grada Beograda VII, Beograd 1960.
- **Nikolić Vidosava**, Turska dobra I Stanovništvo U Beogradu U Beogradu U vreme bombardovanja 1862. godine, Godišnjak grada Beograda IX - X, Beograd 1962 - 1963.
- **Pantelić D.**, Beogradski pašaluk pred Prvi srpski ustanak, Beograd 1949.
- **Perović R.**, Prilozi Za istoriju Prvog srpskog ustanka, Beograd 1954.
- **Popović dr. Dušan J.**, Beograd Kroz vekove, Beograd 1964.
- **Popović dr. Dušan J.**, Beograd pre 200 godina, Beograd 1935.
- **Radovanović dr. LMilovan - Maksimović dr. Branko**, Grad I njegovo stanovništvo, Istorija Beograda II, Beograd 1974.
- Rašid - beja, Istorija Čudnovatih dogadaja U Beogradu I Srbiji, Spomenik Srpske Kraljevske Akademije XXIII, Beograd 1894.
- **Ristić Jovan**, Spoljašni odnošaji Srbije novijega vremena, II, Beograd 1887.
- Samardžić Radovan, Beograd I Srbija U spisima francuskih Savremenika, XVI - XVII Veka, Beograd 1962.

- **Stojanćević dr. Vidosava - Kneźević Srebica**, Etnički odnosi U XIX Veku, Istorija Beorada II, Beograd 1974.
- **Stojančević dr. Vladimir**, Politička istorija do oslobodenja od Turaka, Istorija Beograda II, Beograd 1974.
- **Šabanović dr. Hazim**, Beograd kao vojno - upravno središte U XVT - XVII veku, Istorija Beograda I, Beograd 1974.
- **Šabanović dr. Hazim**, Grad I njegovo satovništvo U XVI - XVII Veku, Istorija Beograda I, Beograd 1974.
- **Šabanović dr. Hazim**, Književnoš Muslimana B I H na orijentalnim jezicima, Sarajevo 1973.
- Šabanović Hazim, Turski izvori za istoriju Beograda I, Beograd 1964.
- **Šabanović Hazim**, Urbani razvitak Beograda od 1521 do 1688 godine, Godišnjak grada Beograda XVII, Beograd 1970.
- **Tričković Radimila**, Beogradska tvrdava I varoš 1739 - 1789. godine, Godišnjak grada Beograda II, Beograd 1973.
- **Tričković Radimila - Čubrilović dr. Vasa, Varoš Posle 1740. godine, Istorija Beograda I, Beograd 1974.**
- Veselinović dr. Rajko, Beograd pod Vlašću Austrije od 1717. do 1739. godine, Istorija Beograda I, Beograd 1974.
- **Veselinović Rajko L.**, Neka pitanje Iz Prošlosti Beograda XVI - XIX Veka, Godišnjak grada Beograda II, Beograd 1955.
- **Veselinović dr. Rajko**, Ratovi Turske I Austrije 1683 - 1717. godine, iIstorija Beograda I, Beograd 1974.
- **Vinaver Vuk**, Tursko stanovništvo U Srbiji Za Vreme Za Vreme Prvog Srpskog ustanka, Istorijski Glasnik 2, Beograd 1952.

الفهرس

هذا الكتاب

امتاز الموقع الذي تقوم عليه بلغراد بأهمية كبيرة على اعتباره بوابة البلقان التي تتحكم بعقدة مواصلات حيوية للغرب في اتجاه البلقان والشرق، وللشرق في اتجاه الغرب.

وقد اتضحت هذه الأهمية الفائقة للموقع بعد سقوطه في يد العثمانيين سنة ١٥٢١، إذ تحوَّل «حصن المسيحية» إلى «دار الجهاد» ومنه تابع العثمانيون اختراقهم لأوربا حتى وصلوا إلى أسوار فيينا سنة ١٥٢٩. وخلال الحكم العثماني الطويل ١٥٢١ - ١٨٦٧، وخاصة في الفترة الأولى ١٥٢١ - ١٦٨٩، توفر الاستقرار لهذا الموقع وتحوَّلت بلغراد من قلعة إلى واحدة من أكبر المدن في أوربا الشرقية. وفي الواقع لقد نشأت خارج القلعة مدينة جديدة ازدهرت كنموذج للمدينة الإسلامية وشكلت نموذجاً حضارياً متقدماً بالنسبة للوسط الأوربي. ومع هذا الازدهار، الذي صاحبه نمو المدن الأخرى في البلقان في ظل الحكم العثماني، امتدت حدود الشرق غرباً حتى أصبحت مدينة بلغراد «بوابة الشرق» بالنسبة للأوربيين الغربيين الذين كانوا يشعرون عند وصولهم إلى بلغراد بعبورهم إلى الشرق. وبعد هذا الازدهار، الذي أصبحت فيه بلغراد تُشَبَّه بدمشق، جاءت حرب الاسترداد لتقضي على بلغراد تدريجياً كرمز للنموذج الحضاري الشرقي الإسلامي.